دعوة الحق

السنة الثامنة ـ العدد ٨٤ ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م

المبادىء الاجتماعية في الإسلام

بقلم

محمد رجاء حنفي عبد المتجلي

تصدرها رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كنتم خير أمة أخرجت للناس

قرآن كريم

مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم
كمثل الجسد إذا إشتكى منه
عضو تداعى له سائر الجسد
بالسهر والحمّى .

حديث شريف



مقدّمـــــة

تميّز المجتمع العربيّ قبل مجيء الدين الاسلاميّ بتغلّب النزعة الفرديّة فيه ، إلّا في داخل القبيلة الواحدة ، فقد كانت تعدّ بمثابة الهيئة السياسيّة داخل الحياة البدويّة .

وكان من أبرز معالم ذلك المجتمع قلّة العلم ، وإن كان هذا لا يمنع وجود بعض من الرجال النوابغ ، الذين أنعم عليهم المولى تبارك وتعالى بعقول ناضجة ، فكان الناس يلجأون إليهم في كلّ ما يعترضهم من مشكلات ، وما يقوم بينهم من منازعات ، فكانوا يحكمون بينهم في حدود ما تّتسع له أذهانهم من العلم والمعرفة .

وعندما جاء الاسلام ، وأشرق نوره بين ربوع ذلك المجتمع ، انقشع ظلام الجهل ، وانزاح ستار التأخّر ، وزالت سحب الجمود الفكري .

لقد جاء الإسلام بعقيدة ورسالة ، جاء بعقيدة دينّية كاملة ، جامعة شاملة ، تنظر في الإنسان ، والكون ، والحياة ، وبرسالة انسانيّة في كلّ ما يصادف الإنسان ، وكلّ ما يعترضه من مشكلات ، خلقّية ، واجتماعيّة ، واقتصاديّة ، وسياسيّة ، رسالة تضع لكلّ مشكلة حلّا دقيقا حكيما يناسبها .

وكان حامل هذه الرسالة السماويّة رجلا عظيما ، وصادقا أمينا ، ونبيّا من العرب ، هو : محمد بن عبد الله ، خاتم النبيّين والمرسلين ، وسيّد البشر أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه .

ومبادىء الإسلام مبادىء أساسيّة ، ترسم لنا الخطوط العامّة للأعمال والاتّجاهات التفصيليّة التى ترتكز عليها هذه المبادىء ، والتي تركها الإسلام لمقتضيات الظروف والأحوال المختلفة في كلّ زمان ومكان ، وأتاح للعقل البشريّ حريّة التفكير فيها ، مادامت مستمدّة من روح الشريعة الإسلاميّة .

روي معاذ بن جبل ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبيّ ﷺ لمّا بعثه إلى «اليمن» ، قال له : «**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟**» ، قال : «أقضي بكتاب الله» ، قال : «**فإن لم تجد ؟**» ، قال : «فبسنّة رسول الله» ، قال : «**فإن لم تجد ؟**» ، قال : «أجتهد رأيي ولا آلو» ، فتهلّل وجه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وضرب صدر معاذ ، وقال : «**الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله**» ، فهذا إرتياح من الرسول ﷺ لما رآه من أخذ معاذ بالقياس ، والاعتماد على الاجتهاد ، الذي هو بذل الجهد في استخراج الحكم .

فولاء معاذ بن جبل ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ لكتاب المولى تبارك وتعالى ، ولسنّة رسوله ﷺ ، لا يحجب عقله عن متابعة رؤاه ، ولا يحجب عقله عن تلك الحقائق الهائلة التى تنتظر من يكتشفها ويواجهها .

وبذلك أكّد الإسلام أنّ للعقل البشريّ دورا هامّا وكبيرا في حلّ المشكلات ، وفي المساهمة في القيام بالرسالة الإنسانيّة ، وذلك عن طريق الاجتهاد فيما لم يرد فيه نصّ شرعيّ ، وهذا دليل من أقوى الدلائل على مرونة الإسلام ،

واستعداده للوفاء بكلّ ما تتطلّبه نواحي الحياة المختلفة في مختلف الظروف ، ومايستدعيه التطوّر الانسانيّ من حلّ للمشكلات التي تواجه المسلمين مع مرور الزمن ، وعلى مستوى عال وبروح علميّة ، ولم يكن الإسلام في يوم من الأيام عقبة في طريق التقدّم العلميّ كما يدّعي أعداؤه ، ويزعم خصومه .

وقد أمر المولى تبارك وتعالى بالمحافظة على العقل ، وأوجب علينا تنميته بالتمرين ، والتفكير الصحيح ، وصقله بالتوجيه السليم ، حتّى تتكوّن له قوّة التمييز بين الحق والباطل ، وقوّة التفريق بين الخير والشرّ ، كما أوجب علينا من ناحية أخرى حمايته من كلّ ما يدخل عليه خللا في سيره ، أو اضطرابا في عمله .

ولذلك حرّمت الشريعة الاسلامّية شرب الخمر ، وتعاطي المخدّرات ، وحرّمت تعلّم الأشياء الضّارة التي تفسد العقول والنفوس ، والكتب والصور التي تكون حربا على الأخلاق ، وتؤدي إلى الانحلال ، وتشعل نار الفتنة ، وتضيّع الحياة في اللّهو والعبث .

ولقد توعّد المولى تبارك وتعالى الذين يشترون لهو الحديث ليضلّوا الناس بغير علم ، ويتّخذوا الحياة هزوا ولعبا ، فقال عزّ وجلّ : **﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ، ويتّخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين﴾**[1] .

---

(١) الآية (٦) من سورة لقمان .

ومنح الإسلام العقل حريّة البحث الدينيّ ، ومنع اجباره على اعتناق دين معيّن ، أو الالتزام برأي خاص ، وفتح باب العلم والمعرفة أمامه بما خلق المولى تبارك وتعالى من كائنات ، وما أنزل على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من كتب ، واهتمّ بالعقل الانسانيّ من ناحية التكوين ، لأنّ العقل من أعظم نعم الله عزّ وجلّ على الإنسان ، إذ به يهتدي إلى معرفة خالقه ، وبه يتأمّل في أسرار الكون والحياة ، وبه يؤدّي الرسالة التى استخلفه الله عزّ وجلّ في الأرض من أجلها ، وبه يتلقّى المعارف والآداب من الأنبياء والعلماء ، وبه يعرف بدايته ، الحكمة من وجوده ، والغاية التي يسير إليها ، وما يجلب للناس الضرر ، وما يعود عليهم بالمنفعة ، لذلك كان الدين والعقل السليم متّفقين دائما ، وسائرين في اتّجاه واحد ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[٢] .

وإذا نظرنا إلى أيّ جانب من جوانب الشريعة الإسلاميّة وجدناه يتّفق مع العقل ، فلم يأمر بشيء ينكره العقل ، ولم ينه عن شيء يحبذه العقل أو حتّى يقبله .

ولقد دعا الإسلام إلى كلّ ما هو طيّب ، ونهى عن كلّ ما هو خبيث ، وهذا هو ما يقول به لعقل السليم ، ولا يرفضه إلّا من ضلّت عقولهم ، وعميت بصائرهم .

وقد وجّه الإسلام العقل إلى مناقشة القضايا العلميّة

---

(٢) الآية (٣٠) من سورة الروم .

والمنطقيّة ، وبحثها في جوّ من الحريّة التامّة ، والموازنة الصحيحة لاستنباط النتائج النهائيّة التي يعتبر الإنسان منها وقد أنزل المولى تبارك وتعالى الكتب ، وأرسل الرسل ، وصرّف الآيات ، وأقام الأدلّة والبراهين ، وحثّ العقل على التأمّل في الوجود بدقّة المتفحصّ الذي يريد الوصول إلى الحقائق ، واستنباط النتائج والمقدّمات ، وجعل ينابيع العلم التي تمدّ العقل بالمعرفة في متناول الإنسان .

ولا يرضى الإسلام لأبنائه أن يعيشوا على هامش الحياة ، وينظروا إليها نظرة سطحيّة عابرة ، ويتخذوها مجالا للطعام والشراب ، واللّهو والعبث ، ولا شيء غير ذلك ، فهم إذا اتّجهوا هذا الاتّجاه فقد ألغوا عقولهم وأفكارهم ، وأصبحوا أشبه بالأنعام ، وصاروا كما قال المولى تبارك وتعالى : ﴿**ولقد ذرأنا لجهنّم كثيرا من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، أولئك هم الغافلون**﴾[٣] .

إن رسالة الإسلام جامعة شاملة ، تنظّم شؤون الحياة بعدالة تامّة ، وتُوجِدُ توافقا كاملا وسليما بين المطالب الماديّة والروحيّة ، لأنّها نظام كامل للحياة الانسانيّة ، بكلّ ما تقوم عليه من مقوّمات في مجال المادة والروح ، وفي ضمير الفرد ومحيط الجماعة ، وفي المشاعر الفرديّة ونظام الدولة ، وفي العبادات والمعاملات ، وبتعبير أدقّ :

---

(٣) الآية (١٧٩) من سورة الأعراف .

الإسلام نظام خلقيّ ، وسياسيّ ، واقتصاديّ ، تتحقّق في ظلّه السعادة والاستقرار ، ويستتبّ تحت لوائه الأمن ، وينتشر السلام .

ولا يضارعه في ذلك أيّ نظام آخر ، لأنّ رسالة الإسلام عبارة عن مبادىء فكريّة ، وعمليّة ، منزّلة من عند المولى تبارك وتعالى لإرشاد الناس وهدايتهم ، وليست من صنع البشر ، بل هي من وحي السماء ، نزلت على رسول الله ﷺ من لدن حكيم خبير ، لنمتثل لها ، ونتّبع تعاليمهما ، ومبادئها ، التي توجّهنا إلى الخير في حياتنا ، لنمتثل لها ، ونتّبع تعاليمها ، ومبادئها ، التي توجّهنا إلى الخير في حياتنا ، وتحدّد سلوكنا ، واتّجاهاتنا في تفكيرنا وسعينا ، وتنير أمامنا الطريق ، ليكون واضحا بيّنا .

هذا ، وانّي لأرجو من الله العليّ القدير أن أكون قد وفّقت في هذا البحث ، والله عزّ وجلّ هو الهادي إلى سواء السبيل .

المؤلـف

الفصل الأول

الأساس في المبادىء الاجتماعيّة

إن الأساس الذي تقوم عليه المبادىء الاجتماعيّة في الإسلام هو : تهذيب النفس البشريّة، وتنقيتها ، للوصول بها إلى مرتبة الكمال ، لكي تكون حياتها توفيقا بين القلب والعقل ، وهذه المرتبة هي التي تحتاج إليها الإنسانيّة أشدّ الاحتياج .

وفي القرآن الكريم آية كريمة تشتمل عل ثلاث كلمات ، تضمّنت — كما قال القرطبي في تفسيره — قواعد التشريع في المأمورات والمنهيّات ، وفيها كلّ أصول الأخلاق ، وهي قول الباري جلّ شأنه : ﴿**خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين**﴾[1] .

ولقد سأل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه جبريل عليه السلام عمّا يراد من هذه الآية — وقد جمعت مكارم الأخلاق — فقال له : «إن الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك» ، فالعفو عن الظلم تسامح ، واعطاء المانع تأديب لنفسه ، ووصل القاطع مفتاح لقلبه .

وقد جمع رسول الله ﷺ الأخلاق الواردة في هذه الآية

---

(١) الآية (١٩٨) من سورة الأعراف .

الكريمة لجابر بن سليم ، قال جابر : ركبت قعودي ، ثمّ أتيت إلى مكّة ، فطلبت رسول الله ﷺ ، فأنخت قعودي بباب المسجد ، فدلّوني على رسول الله ﷺ ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر ، فقلت : السلام عليك يارسول الله .. فقال : «**وعليك السلام**» ، فقلت : أنّا معشر البادية قوم فينا الجفاء ، فعلّمني كلمات ينفعني الله بها .. فقال : «**ادن**» ثلاثا ، فقال : «**أعد عليّ**» ، فأعدت عليه ، فقال : «**اتّق الله ولا تحقّرن من المعروف شيئا ، وأن تلقي أخاك بوجه منبسط ، وأن تفرغ دلوك في إناء المستسقي ، وان امرؤ سابّك بما لا يعلم منك فلا تسبّه بما تعلم منه ، فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وزرا ، ولا تسبّن شيئا ممّا خوّلك الله تعالى**» ، قال جابر : فوالذي نفسي بيده ، ما سببت بعده شاة ولا بعيرا .

وفي القرآن الكريم مجموعات من الآيات القرآنيّة الكريمة تبيّن ما يجب على الإنسان أن يكون عليه في سلوكه وفي تصرّفاته ، وتلك هي أخلاقه التي تخلّق بها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، ليعطينا قدوة عمليّة نحتذيها في سلوكنا وتصرّفاتنا .

وليس هناك طريق إلى تكامل النفس البشريّة غير العمل بالقانون الإلهي ، وضبط النفس ، والقيام بالرسالة التي استخلف المولى تبارك وتعالى الإنسان عليها على الأرض ، سواء كان ذلك في حياة الفرد ، أو الأسرة ، أو المجتمع .

حيـاة الفـــرد

يعتبر الفرد لبنة في بناء المجتمع ، فإن كانت هذه اللّبنة قويّة متماسكة قوى البناء وتماسك في صلابة وشموخ ، وإن كانت اللّبنة هشّة غير ناضجة انهار البناء من أساسه ، ولن يجديه أن تمسكه دعائم أو سنّادات .

من أجل هذا اعتنى الإسلام بالفرد ، وتربيته ماديّا ومعنويّا على أساس من الأخلاق الفاضلة ، والعزيمة الصادقة القويّة ، والهدف النبيل ، وإن نظرة واحدة إلى أهمّ مقاصد الشريعة الإسلاميّة من ناحية التشريع في الميدان الفرديّ والاجتماعيّ ، لترينا مدى السموّ الروحيّ الذي يرتفع بالإنسان ليكون إنسانا ، يخدم نفسه ، ويخدم المجتمع الذي يعيش فيه .

أوّلا : في الجانب النفسيّ :

لقد حرّرت الشريعة الإسلاميّة الإنسان من الأوهام ، والتعلّق بالباطل ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله**﴾[2] ، فالإسلام يمنح الفرد قدرا من الحريّة يحقّق به كيانه ، ولا يطغى به على الآخرين ، ويمنح المجتمع سلطة واسعة في تنظيم العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة كلمّا خرجت عن التوازن .

---

(٢) الآية (٦٤) من سورة آل عمران .

ثانيا : من وجهة العلاقات بين الناس :

إن الإسلام يستهدف العدالة المطلقة ، والتي يجب أن تسود بين الناس في علاقاتهم بعضهم مع بعض ، حتّى مع خصم لم يحدث معه اتّفاق في مبدأ ، أو تصرّف ، أو رأي ، ما لم يكن قد قام بارتكاب شيء يوجب الدفاع ومحاربته ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبّ المقسطين . إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون**﴾[٣] ، ويقول سبحانه عزّ وجلّ : ﴿**يا أيها الذين آمنوا : كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى**﴾[٤] .

ثالثا : التكافل الاجتماعي :

لقد حثّ الإسلام على التكافل الاجتماعيّ ، الذي هو مسئوليّة كلّ فرد في المجتمع عن كلّ اخوته .

وحثّ الإسلام على الدعوة العامّة إلى الإصلاح وتقويم المجتمع ، وهو ما يعبّر عنه بلسان الشرع بـ «الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر» ، ولقد جاء في حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قوله : «**إذا عظّمت أمّتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر**

(٣) الآيتان (٨ ، ٩) من سورة الممتحنة . (٤) الآية (٨) من سورة المائدة .

بالمعروف والنهي عن المنكر نزع منها بركة الوحي» .

ففي «نزع بركة الوحي» تصوير رائع لما يتسلّط على القلب من غشاوة وإعراض عن الاستجابة إلى صوت الواجب ، وإحساس الضمير ، وهذا التصوير يقارب المعنى الوارد في القرآن الكريم عن أهل الكتاب ، الذين طال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، ولقد علّل القرآن الكريم السبب في ذلك بأنّهم : ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾[٥] .

رابعا : العدالة الاجتماعيّة :

إن العدالة الاجتماعيّة في الإسلام لا تقتصر على التشريع البشريّ فحسب ، بل لها دعامة أخرى ، وهي : «الضمير الإنساني» ، أي : سلوك الإنسان ، وتخلّقه بما يوحيه عليه دينه .

ومن هنا تظهر بوضوح نقطة الفرق بين القانون الوضعي أو التشريع البشريّ ، وبين القانون السماوي أو التشريع الإلهي ، الذي يفترض حتميّة شعور الفرد بالمراقبة الحقيقيّة ، على أساس أن المولى تبارك وتعالى يراقب تصرّفات الإنسان من حيث لا يشعر .

والإسلام يعتبر الأخلاق من أهمّ الدعائم في الشريعة ، ويعتبر أن التخلّق بها سراً وعلانيّة من أبرز الشروط لتحقيق صلاح المسلم ، وهذه خطوة مثاليّة لم يوجد لها بديل فيما ظهر من فلسفات ، وفيما سُنَّ من قوانين ، يقول المصطفى صلوات الله

---

(٥) الآية (٧٩) من سورة المائدة .

وسلامه عليه : **«أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة : تقوى الله ، وحسن الخلق»** .

إن الإصلاح الباطني أو الداخلي هو الأساس والدعامة الرئيسيّة للاصلاح الظاهري ، ولهدف عظيم ، وغاية نبيلة ، أطلق الإسلام على الجزء الذي يقتطع من مال الغنيّ للفقير اسم «زكاة» ، الذي يعني أصلا : «الطهارة والنموّ» ، فالزكاة تطهرّ البيئة الاجتماعيّة من الأحقاد ، وتعوّد الفرد على البذل ، وعلى فضيلة الإحسان ، باعتبار أن ذلك حقّ معلوم ، للسائل والمحروم في مال الغنيّ ، وليس بهبة تُوهَب ، أو صدقة تُعْطَى .

خامسا : الدعوة إلى التطبيق العلميّ :

إن الدعوة الصريحة إلى التطبيق العلميّ لكلّ هذه المبادىء شرط أساسيّ لتمام الايمان ، وتحقيق نتائجه المنتظرة في الدنيا الآخرة

والإسلام حينما يعني بالفرد هذه العناية ، في نشأته الماديّة ، ونشأته المعنويّة ، إنّما يريد أن يجعل هذا الفرد قادرا على تحمّل مسئوليّته في كلّ موضع يوضع فيه ، فيؤدي واجبه نحو خالقه تبارك وتعالى ، ونحو نفسه ، ونحو وطنه ، ونحو مجتمعه الذي هو جزء منه .

إذن فالفرد مسئول عن أداء ما فرض عليه من عبادات ومعاملات ، فيؤدّيها كما أمر المولى سبحانه عزّ وجلّ ، لتكون الطاعة غريزة في نفسه ، وليكون باطنه كظاهره ، ويتحلّى بكريم الأخلاق ومحاسن الصفات .

والفرد مسئول عمّا أوجبه الله عزّ وجلّ عليه نحو نفسه ، فلا يوردها موارد التهلكة ، ولايأتي بما يضرّ جسمه وعقله ، حفاظا على ثروة القوّة والفكر في الفرد المسلم ، وليكون عضوا نافعا في جماعة المسلمين ، يقول الحقّ جلّت حكمته : ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾[6] ، ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**المؤمن القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف**» .

إن الإسلام ينظر إلى الفرد نظرة متكاملة ، تتّفق مع واقع الفطرة وحقيقة الخلق ، وحقيقة الفطرة وواقعها أنّها روح وجسد ، وحقيقة الخلق هي : الإنسان مخلوق ، والله عزّ وجلّ خالق ، فلابدّ من مراعاة الصلّة بين الخالق والمخلوق في التربية ، وخير التربية وأكملها وأسماها هي التي تتّفق مع سماحة الفطرة ، ومع حقيقة الخلق .

والتربية الصادقة هي التي تعني بالإنسان من جميع نواحيه ، وتقيم العدل في داخله ، وتعطي في اعتدال كلّ جانب حقّه ، فالاعتدال هو الذي يتيح للروح أن تظفر بفضائلها ، وللجسد أن ينعم بمطالبه ، وصدق المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول : «**لا رهبانيّة في الإسلام**» .

لا تفرقة بين جسد وروح :

إن تربية الفرد في الإسلام تقوم على أساس أن لا تفرقة بين

---

(٦) الآية (١٩٥) من سورة البقرة .

(٧) [illegible]
(٨) [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] (٧)

[illegible]
[illegible] (٨)

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

من نظافة وطهر ، ومناعة وقوّة ، وتربية الجسد تمتزج مع فضائل الروح امتزاج تفاعل فطريّ ، تنتج عنه الثمار الطيّبة ، والأعمال الصالحة ، فالإسلام فرض مجموعة من العبادات تعدّ دعائمه وأسسه ، وتصل بالإنسان في مجموعه إلى الطهر في ظاهره وباطنه ، وهذه العبادات هي :

العبادة الأولى : الصلاة :

إن الصلاة عنصر من العناصر المكّونة لشخصيّة المؤمن ، وقد عرض لها القرآن الكريم من جهات متعدّدة ، فهي من أوصاف المتّقين : ﴿**الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة**﴾[٩] .

ثمّ هي العنصر الثاني من عناصر بناء الإيمان ، كما ورد في حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ البيت**» .

وعرض لها كذلك باعتبارها عنصرا من عناصر البرّ ، وترقيق القلوب ، وتهذيب الأخلاق : ﴿**وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾[١٠] .

و : ﴿**إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسّه الشرّ جزوعا .**

---

(٩) الآية (٣٠) من سورة البقرة .

(١٠) الآية (٤٥) من سورة العنكبوت .

وإذا مسّه الخير منوعا . إلّا المصلّين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾(١١) .

و : **﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة . إلّا أصحاب اليمين . في جنّات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم في سقر . قالوا : لم نك من المصلّين . ولم نك نطعم المسكين . وكنّا نخوض مع الخائضين . وكنّا نكذّب بيوم الدين . حتّى أتانا اليقين﴾**(١٢) .

إن الصلاة رحلة إلهيّة أوجبها المولى تبارك وتعالى على عباده في أوقات مختلفة ، يخلص فيها المؤمن من دنياه ، ويتفرّغ لخالقه عزّ وجلّ ، متمثّلا عظمة الخالق ، ولقد كان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة ، وفي الحديث الشريف : **«جعلت قرّة عيني في الصلاة»** ، وفي القرآن الكريم : **﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرة إلّا على الخاشعين . الذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم وأنّهم إليه راجعون﴾**(١٣) .

والصلاة من أقدم العبادات الدينيّة ، ولقد عرفت في الرسالات السماويّة جميعها ، فلم تخل منها رسالة .

فإبراهيم عليه السلام يقول : **﴿ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصلاة**

---

(١١) الآيات (١٩ ، ٢٣) من سورة المعارج .

(١٢) الآيات (٣٨ ، ٤٧) من سورة المدّثر .

(١٣) الآيتان (٤٥ ، ٤٦) من سورة البقرة .

فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾[١٤] .

ويقول المولى تبارك وتعالى لاسماعيل وإبراهيم عليهما السلام : **﴿أن طهرّا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود﴾**[١٥] .

ويقول الله جلّ شأنه عن اسماعيل عليه السلام : **﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربّه مرضيا﴾**[١٦] .

وتنادي الملائكة والدة عيسى عليه السلام : **﴿يامريم اقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾**[١٧] .

ويتحدّث عيسى عليه السلام بنعمة المولى تبارك وتعالى عليه فيقول : **﴿وجعلني مباركا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيّا﴾**[١٨] .

ولقمان يعظ ابنه فيقول : **﴿أقم الصلاة وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور﴾**[١٩] .

وفي ميثاق «بني إسرائيل» يقول الحقّ جلّ وعلا : **﴿وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة﴾**[٢٠] .

---

(١٤) الآية (٣٧) من سورة ابراهيم .

(١٥) الآية (١٢٥) من سورة البقرة .

(١٦) الآية (٥٥) من سورة مريم .

(١٧) الآية (٤٣) من سورة آل عمران .

(١٨) الآية (٣١) من سورة مريم .

(١٩) الآية (١٧) من سورة لقمان .

(٢٠) الآية (١١٠) من سورة البقرة .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمسا .. ما تقولون ذلك يبقي من درنه ؟**» ، قالوا : لا يبقي ذلك من درنه شيء .. قال : «**فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بها الخطايا**» .

وقد عني الإسلام ببيان أوقات الصلاة ، وصفاتها ، من قبل صلاة الفجر ، ومن بعد صلاة العشاء .

إن الصلاة في صورتها الكاملة مثل رائع لما يقع من اعتدال بين أمر الروح والجسد ، فهي مع كونها نجوى قلب ، وتسبيح فكر ، وترديد ذكر ، طهارة وضوء ، ورياضة جسد .

العبادة الثانية : الزكاة :

لقد حظيت هذه العبادة بعدد ضخم من الأوامر القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوّية الشريفة ، حيث ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من خمسين مرّة ، وقرنت بالصلاة في أكثر من ثلاثين مرّة .

ومادّة «الزكاة» تدلّ على النماء ، والزيادة ، والطهر ، وفي القاموس : «زكا يزكو زكاة : نما ، كأزكى ، وزكاه الله تعالى وأزكاه ، والزكاة : صفوة الشيء ، وما أخرجته من مالك لتطهّره به» .

وعلى هذا جرى أغلب الفقهاء ، فهي : تمليك مال مخصوص لمستحقّه بشرائط مخصوصة .

وسمّى الاخراج من المال زكاة — وهو نقص منه — من

حيث ينمو بالبركة ، أو الأجر الذي يثاب به المزكّى ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها**﴾[٢١] .

والزكاة مثل الصلاة تعتبر من أقدم الأوامر الدينيّة ، فالله عزّ وجلّ يقول عن اسماعيل عليه السلام ﴿**وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربّه مرضيا**﴾[٢٢] .

ويقول الحقّ جلّت حكمته لـ «بني إسرائيل» : ﴿**لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي ، وعزّرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفّرن عنكم سيّئاتكم ، ولأدخلنّكم جنّات تجري من تحتها الأنها ، فمن كفر بعد ذلك منكم ، فقد ضلّ سواء السبيل**﴾[٢٣] .

وبقول عيسى عليه السلام متحدّثا عن نعمة المولى تبارك وتعالى عليه : ﴿**وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيّا**﴾[٢٤] .

ويحدّثنا الله عزّ وجلّ عن إبراهيم واسحاق ويعقوب فيقول : ﴿**وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾[٢٥] .

---

(٢١) الآية (١٠٣) من سورة التوبة .

(٢٢) الآية (٥٥) من سورة مريم .

(٢٣) الآية (١٢) من سورة المائدة .

(٢٤) الآية (٣١) من سورة مريم .

(٢٥) الآية (٧٣) من سورة الأنبياء .

وهكذا نجد مكانة الزكاة عند الله جلّ شأنه ، وفي دينه ، تشكّل عنصرا هامّا من عناصر تكوين الرسالات بأجمعها .

وهي إلى جانب كونها صيحة اجتماعيّة مدد يغذّي الايمان ، وطهر للنفوس من خلق البخل ، ليستكمل الانسان انسانيّته ، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿**ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[٢٦] .

فبالزكاة يطهر الغنيّ من البخل ، ويطهر الفقير من الحقد ، وتتوثّق عرى المحبّة بين الأغنياء والفقراء ، وتسري بينهم روح التعاون والتراحم ، ويتبادلون الاحساس بالعطف ، والشعور بالكرامة ، وتقام المصالح العامّة ، ويلتئم شمل المجتمع ، ولهذا جعلها المولى تبارك وتعالى حقّا على جميع الناس ، في جميع الأموال ، متى بلغت النصاب ، فهي حقّ للفقير ، لا تفضّل من الغنيّ ، فلا الفقير مهين حين يأخذها ، ولا الغنيّ مدلّ حين يعطيها .

وكذلك جعلها المولى تبارك وتعالى حين يقول : ﴿**والذين في أموالهم حقّ معلوم ، للسائل والمحروم**﴾[٢٧] .

و : ﴿**وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه**﴾[٢٨] .

و : ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾[٢٩] .

---

(٢٦) الآية (١٦) من سورة التغابن .

(٢٧) الآيتان (٢٤ ، ٢٥) من سورة المعارج .

(٢٨) الآية (٧) من سورة الحديد .

(٢٩) الآية (٣٣) من سورة النور .

وعلى هذا قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لمعاذ ابن جبل ــ رضي الله تعالى عنه ــ حيث ولّاه على «اليمن» :
«إنّك تأتي قوما من أهل الكتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كلّ يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم ، تؤخذ من أغنيائهم ، وتردّ إلى فقرائهم» .

هكذا نظر الإسلام إلى الزكاة : نقل مال من يد الغنيّ المسلم الذي استخلفه المولى تبارك وتعالى على ماله ، وجعله مشرفا عليه ، إلى يد الفقير ، لتكون وسيلة من وسائل توزيع الثروة ، وتنقّلها بين أفراد المجتمع ، ولتعود فائدتها الاجتماعيّة والعمليّة على المعطي والآخذ معا ، وليقف عند الحدّ الذي يغنيهم شرّ طغيان المال ، وفساد الطبقات .

والزكاة على هذا النحو المنظّم ، في النقد ، والنعم ، والزروع ، والثمار ، وعروض التجارة ، نفّذت في السنة الثانية من هجرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من «مكّة» إلى «المدينة» ، بعد أن تكّونت للاسلام دولة ، أمّا قبل ذلك ، وفي العصر المكّيّ للدعوة ، فقد دفعهم القرآن الكريم إلى الانفاق في سبيل الله عزّ وجلّ دون أن يحدّد لهم ما ينفقون ، تاركا الأمر في ذلك إلى أريحيّتهم العربيّة ، وما خلّقته الدعوة الجديدة من ضمير حيّ في نفوسهم يشعر بمعنى الأخوة الانسانيّة .

وقد سألوا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «ماذا

ينفقون ؟» ، فعرّفهم القرآن الكريم بأسلوبه البلاغيّ الرائع حين قال : «**قل العفو**»[٣٠] ، والعفو هو : ما فضل عن حاجة الفرد ، وحاجة من يعول .

ووجّهم مرّة أخرى إلى موضع الانفاق والبذل حين قال : «**قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**»[٣١] .

والزكاة بنظامها الاسلاميّ أمر مبتكر لم يرد قبل الاسلام في شريعة من الشرائع ، وما ورد بلفظ «الزكاة» في الأمم السابقة ، وقبل تنفيذ الزكاة كونها فريضة اسلاميّة ، يقصد به مجرّد البرّ ، والانفاق على الفقراء .

حتّى إذا ما تركّز المسلمون في «المدينة» ، وصاروا قوّة دوليّة لها منهجها الخاصّ في الحياة ، وهدفها المحدّد في العمل ، واتّجهت دعوة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إلى توجيه المجتمع وتنظيمه ، نزلت التشريعات ، وقرّرت الأحكام ، تحدّدت الزكاة فريضة ماليّة ، تهدف مع غيرها من موارد الدخل إلى صالح الفرد ، وصالح الجماعة ، يحفظ بها المجتمع حقّه على الأفراد جزاء ما يحمله لهم من تبعات ومسئوليّات .

وعلى هذا الأساس أعلنت الزكاة ركنا من أركان الدخول في الإسلام ، وعدّت فرضيّة الزكاة نابعة من ضمير الأمّة لصالح الأمّة ، فما اليد المعطية واليد الآخذة إلّا يدان لشخص واحد ،

---

(٣٠) الآية (٢١٩) من سورة البقرة .
(٣١) الآية (٢١٥) من سورة البقرة .

كلتاهما تعمل لخدمته ، وهذا هو المجتمع الآمن المؤمن .

العبادة الثالثة : الصوم :

لقد فرض الإسلام الصوم تقوية للروح والجسد ، وحصانة لكليهما ..

فهو بالنسبة للروح يعمل على إبراز خصائصها ، وانتصار فضائلها .

وبالنسبة للجسد فهو تهذيب وإصلاح .

فالحياة التي نعيشها لابدّ فيها من عزيمة صادقة تصدع غوائل الهوى ، وتردّ هواجس الشرّ ، وتبطش بالهوى الكذوب ، وتنطلق بالفرد إلى الجهاد الحرّ الكريم ، في جميع الميادين .

وهذه العزيمة لابدّ منها لتحمّل أعباء الحياة ، ومواجهة ما فيها من مشقّات ومن مصاعب .

والصيام وهو يمدّنا بالعزيمة المتجردّة ، والارادة الحرّة ، عون من المولى تبارك وتعالى لنا على تحمّل أعباء الحياة .

وأيّ عزيمة أقوى وأصدق ، بل أيّ نظام أدّق من أن نرى الفرد في مشارق الأرض وفي مغاربها يمسك عن طعامه وعن شرابه في لحظة محدودة ، ثمّ يتناوله في وقت معيّن من اللّيل إلى الفجر ، ثمّ يمسك الفرد زمام نفسه من أن تذلّ لشهوة ، أو تسترقّ لنزوة ، أو تنجرف في تيّار الهوى والضلال ، أو تنحرف عن هدى الصراط المستقيم ؟ .

بل أيّ إرادة حرّة أكرم من إرادة المتجرّد للمولى تبارك وتعالى ، المتّجه لخالقه عزّ وجلّ ، الممسك عن هواه تقّربا

إليه ، والممتنع عن طعامه وشرابه رغبة فيه ، الحذر من مواطن السّوء ، وسفاهة القول رهبة منه ، والمتّجه بكيانه كلّه شوقا إلى قربه ، وإيمانا بفضله ؟ .

إن الحياة بمراحلها المختلفة ، وظروفها المتقلّبة ، ومصاعبها المتعدّدة ، ومشكلاتها المختلفة ، هذه الحياة بسرّائها وضرّائها ، ويسرها ورخائها ، ونعيمها وشقائها ، تحتاج إلى صبر ، والصيام كما قال المطفى صلوات الله وسلامه عليه «**نصف الصبر**» ، والصبر نصف الايمان .

وأيّ صبر أكرم من صبر يحرز طاعة ، أو يردّ معصية ، يتحقّق معه في الحالين رضا الخالق عزّ وجلّ ؟ .

ذاك هو الصبر الناشىء عن الصيام الرّضى الأمين .

والصبر الذي يحقّقه الصيام من أهمّ الخصائص التي تؤهلّه للبقاء ، بقائه إنساناً خلق ليسعى إلى دار البقاء ، دار الخلود وجنّات النعيم ، وذلك بفضائله التي يحقّقها بسعيه ، ويبرهن بما يحقّق أهليّته للتمّتع بثمار غرسه ، ورضا ربّه عزّ وجلّ .

إن فريضة الصيام تعتمد كباقي العبادات في نتائجها على الايمان بالله عزّ وجلّ ، واليوم الآخر ، وهي تتميّز بتجرّدها واتّصالها بمصدر الخير والنور ، كما تعتمد على القدرة ، قدرة الصائم على الصيام ، وإلّا وجب الفطر ، وجاء القضاء عند المقدرة عليه ، أو الفدية عند العجز الوقن به .

العبادة الرابعة : الحج :

إن فريضة الحج كغيرها من العبادات تعتمد على الايمان

بالمولى تبارك وتعالى ، وباليوم الآخر .

وأوّل ما تفيض به هذه العقيدة على النفوس ، وهي تذكّرها بتقوى الله عزّ وجلّ وخشيته أن تهذّب السلوك الانساني ، وأن تضع المجتمعات في رعاية الضمير اليقظ ، فتجعل من المجتمع الانسانيّ مجتمعا متعاونا على الخير ، متعاونا على البرّ ، إذ كلّ فرد فيه يعلن أن من وراء سعيه حساب ، وحسابه من ورائه ثواب أو عقاب ، وأنّه يمرّ بالدنيا ولا يقيم ، فمن وراء اجتماعه في الحج جمع أكبر يجني فيه ما غرست يداه ، مصداقا لقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره**﴾[٣٢] .

وليس هناك شيء يمكن أن يصون المجتمعات الانسانيّة ، ويرعى اخاءها مثل ما تصنع خشية الله عزّ وجلّ والخوف منه ، فهنا يقبل الانسان وقد طرح هواه ، وتخلّى عن أنانيّته .

وإذا تأمّلنا فريضة الحجّ من بدايتها ، وهي تفرض الاحرام من مواقيت محدّدة ، وللاحرام لباسه وتلبيته وآدابه الخاصّة والعامّة ، وللاحرام مظهره الجامع الذي يجعل الناس يدخلون إلى منطقة التحريم وقد طرحوا ما به يتفاضلون ويتفاوتون ، واتّجهت نيّاتهم وعزائمهم إلى التزوّد من العمل الصالح الذي يقرّبهم إلى المولى تبارك وتعالى ، فلا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال في الحج ، بل ذكر لله عزّ وجلّ وبرّ بالخلق ، منافع مشتركة تعود بالخير والبرّ على الانسانيّة جمعاء ، وجدنا وحدة في كلّ شيء ، في العقيدة : فالله واحد لا شريك له ، والكلّ يستجيب لأمره ،

---

(٣٢) الآيتان (٧ ، ٨) من سورة الزلزلة .

ويبتغي مرضاته ، وهو يهتف متجرّدًا «لبّيك اللهمّ لبّيك ، لبّيك لا شريك لك لبّيك» .

وحدة في الاتّجاه ، فالقبلة واحدة ..

وحدة في الزمان ، فالحج أشهر معلومات .

وحدة في المكان ، فالطواف ، والسعي ، والوقوف بـ «عرفات» ، ورمي الجمار ، والنحر ، والتلبية ، لها أماكنها المعيّنة المحدّدة .

وهذه الوحدة الشاملة تجعل عواطف الناس الذين أقبلوا من جهات متفرّقة ومتباينة تنصهر في بوتقة واحدة ، فتمضي إلى طريق واحد ، هو : طريق الخير والبرّ ، طريق الهدى والفلاح والنجاح ، طريق الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه ، ولا انحراف معه ، وصدق الحقّ تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله**﴾(٣٣) .

وتعدّ فريضة الحج في الإسلام من أهمّ الفرائض التي تربط الأوّل بالآخر ، والسابق باللاحق ، وتجمع الأقطار المختلفة على عبادة مشتركة ، تصل موكب النبوّة من عهد إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي أقام البيت وشيّده ، وأذّن في الناس بالحجّ بأمر من المولى تبارك وتعالى : ﴿**وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالا ، وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجّ عميق ، ليشهدوا منافع لهم**﴾(٣٤) .

إن الاسلام بفرضيّته للحج قد أرسى للانسانيّة دعامتين :

(٣٣) الآية (١٥٣) من سورة الأنعام .

(٣٤) الآيتان (٢٧ ، ٢٨) من سورة الحج .

الأولى : الاعتراف الكامل بالآثار الطيّبة للنبوّات السابقة ، التي لم تخالطها أهواء الناس ، ولم تنحرف بها شهواتهم ، فجميع الأنبياء عند المسلمين لهم كلّ التكريم والتبجيل ، ولكنّ أهواء الناس هي التي فرّقت بينهم ، فتخاصمت باسمهم ، وهم من كلّ ذلك براء .

والاسلام العظيم هو الذي أحيا الاعتراف بهم جميعا ، وقدّمهم للانسانيّة أخوة متحابّين ، متعاونين في حمل الحقيقة عبر القرون .

إن أصول الدعوات السماويّة التي لا تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان ، ولم تمتدّ إليها يد التبديل والتحريف تجمعها في الأصل وحدة دينيّة ، فالدين بنيان واحد ، عملت فيه أيدي الأنبياء جميعا ، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا ، فحسّنه وجمّله إلّا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يلفّون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلّا وضعت هذه اللّبنة .. فأنا اللّبنة ، وأنا خاتم النبيّين**» .

فاليهودي إن تجرّد من هواه ، وأنصف دينه ، التقى مع الاسلام ، والمسيحيّ إن هو تحرّر من هواه ، وأنصف رسوله التقى مع الاسلام .

واليهود والمسيحيون في تقديرهم لابراهيم عليه السلام ، وادّعاء نسبتهم إليه ، إن هم أنصفوا الحقيقة ، علموا أن ابراهيم عليه السلام لم يكن يهوديّا ، ولا نصرانيّا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، والمولى تبارك وتعالى يقول : ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم**

(٦٨) [illegible] (٧٨) [illegible]
(٥٨) [illegible] (٧٦) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] (٦٨)

[illegible] (٥٨)

[illegible]

كلّ عام إعلانا قويّا عن وحدة الانسانيّة في الاستجابة للمولى تبارك وتعالى ربّ العالمين ، وعن سلامها وهي تتآخى في طهر ومودّة ، وتعلن ولاءها لصاحب الملك والنعمة ، وهذا دعاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وقد شاهد الكعبة الشريفة المباركة : «**اللهم زد بيتك هذا تشريفا ، وتعظيما ، ومهابة ، وتكريما ، وزد من حجّه أو اعتمره تكريما ، وتشريفا ، وتعظيما ، وبرّا ، اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحيّنا ربّنا بالسلام**» .

وكان هذا الموكب المهيب تهيئة للانسانيّة كي تتدارس شؤونها ، وتتداول منافعها في حرم آمن ، وقلب غير آثم ، لا فسوق ، ولا جدال ، بل زاد من الخير ، ولباس من التقوى : ﴿**وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ، واتّقون يا أولي الألباب**﴾[٣٧] .

وكان هذا الموكب المهيب شبكة الاتّصال القويّة بين الجهات المختلفة ، والأقاليم المتباعدة ، تجتمع كلّها في صعيد واحد ، ثم تعود وقد انصهرت في بوتقة واحدة ، تعود بالحبّ والمودّة ، تعود وفي قلبها للّقيا حنين ، وبين ضلوعها للعودة شوق جارف ، وفي خواطرها للانسانيّة وفاء ، وفي صلواتها وهي تتّجه دائما لمنطقة التجمّع تقديم للخير أيّما تقدير ، وفي مشاعرها وعواطفها وفاء للمعاني والمثل التي حمّلتها ايّاها فريضة الحجّ .

إن الحجّ عبادة هادفة ذات غاية ، وغاية الحجّ هي : طهر

(٣٧) الآية (١٩٧) من سورة البقرة .

النفس ، وطمأنينة القلب بذكر المولى تبارك وتعالى .

وغايته : تعارف الانسانيّة ، وتبادل منافعها .

وغايته : إشاعة الحبّ والرحمة بين عباد الله عزّ وجلّ .

وغايته : الأخوّة الانسانيّة البّارّو في ظلّ الايمان الصادق اليقظ .

فريضة الجهاد :

إن الجهاد لم يشرع في الاسلام وحده ، بل شرع — أيضا — في الأديان التي سبقته ، وعلى نحو يتبّين معه مدى برّ الاسلام ورحمته بالعالمين .

والجهاد في حقيقته شرعة لابدّ منها ، لعلاج الفساد ، وصيانة امن والسلام ، شرعة أخذت بها جميع الأمم والشعوب ، لتذود عن حماها ، وتردّ كيد العدوّ ، بيد أن الاسلام قد انفرد في الحرب بآدابه الخاصّة ، وغايته الواضحة ، فما شرعت الحرب فيه إلّا لحقّ وبحقّ .

وشريعته فيها شريعة الحقّ والعدل ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنّهم ظلموا ، وإنَّ الله على نصرهم لقدير**﴾[٣٨] .

وإنّنا إذا تأمّلنا ما سجّلته أسفار التوراة ، أو صحائف الانجيل ، المتداولة في أيدي اليهود والمسيحيّين ، لأعجبنا ببرّ الاسلام وعدله ، ولأدركنا أنّه بحقّ هو دين العالمين .

وسوف نورد فيما يلي نصّين من «التوراة» ، و«الانجيل» ، يوضحّان مدى عدالة الاسلام وبرّه ، ومدى

(٣٨) الآية (٣٩) من سورة الحج .

ما فيهما من التدمير والتخريب ، والاهلاك والسبّي .

جاء في سفر «التثنية» ما نصّه : «حين تقرب مدينة لكي تحارب استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرّب إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحدّ السّيف ، وأمّا النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة كلّ غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الربّ إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدّا ، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرّب إلهك نصيبا ، فلا تستبق منها نسمة ما ، الحيثّين والأموريّين والكنعانيّين والفرزيّين والحويّين واليبوسيّين كما أمر الرّب إلهك ، بل تحرّمها تحريما كما أمر الرّب إلهك»[٣٩] .

وجاء في إنجيل «متى» ما نصه : « لا تظنوا أنّي جئت لألقي سلاما على الأرض ، ما جئت لألقي سلاما بل سيفا ، فإنّي جئت لأفرّق الانسان ضدّ أبيه ، والابنة ضدّ أمّها ، والكنّة ضدّ حماتها ، وأعداء الانسان أهل بيته»[٤٠] .

وإذا نحن تأمّلنا الواقع العملي في حياة الناس وجدنا أنّ الانسانيّة لم تعرف للحرب قانونها العادل ، وشريعتها المنصفة البارّة إلّا يوم أن أشرقت على الوجود شمس الاسلام ، فهي لم

---

(٣٩) الاصحاح رقم (٢٠) ، من (١٠) إلى (١٧) .

(٤٠) الاصحاح العاشر ، من (٣٤) إلى (٣٦) .

تعرف حرمة العهد ، ورعاية الميثاق. إلّا يوم أن عرفت عن الاسلام وفاءه بالعهد ، وتحريمه للغدر .

فما رأينا في الحرب المعلنة باسم الاسلام وهي لا تكون إلّا جهادا ، أنّه باغت أحدا ، أو نقض عهدا ، أو قاتل غدرا ، أو تمنّى لقاء عدوّ ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء انّ الله لا يحب الخائنين**﴾[41] .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**لا تتمنّوا لقاء العدوّ ، وإذا لقيتموه فاثبتوا**» .

ومن وصايا الرسول ﷺ وهو يرسل جيشا لخوض إحدى المعارك : «**انطلقوا باسم الله وبالله ، وعلى بركة الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا صغيرا ، ولا امرأة ، ولا تغلّوا ، وضعوا غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا ، إن الله يحبّ المحسنين**» .

ومن وصايا الصديق أبي بكر — رضي الله تعالى عنه — لأسامة بن زيد وهو يتولّى قيادة الجيش المتّجه إلى «الشام» : «لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلّا للأكل ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم قد

---

(٤١) الآية (٥٨) من سورة الأنفال .

فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا ما حولها مثل العصائب ، فأخفقوهم بالسيف خفقا» .

إن التاريخ لم يعرف على وجه الاطلاق عن المسلمين وهم يصدون عن تعاليم دينهم أنّهم ردّوا صلحا ، أو نقضوا عهدا ، بل لم يعرف عنهم إلّا الوفاء بالعهد ، والنداء بالصدق ، والتواصي بالصبر والمرحمة .

انّهم يعلمون تماما أن نقض العهد من صفات الذين سلبت انسانيّتهم وآدميّتهم ، وصاروا في مرتبة أحطّ من مرتبة من الدواب والأنعام ، يقول الحقّ جلّ وعلا : ﴿**إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم في كلّ مرّة وهم لا يتّقون**﴾[٤٢] .

وإذا كان من عادة المشركين نقض العهد على الدوام ، فهم ينقضون عهدهم في كلّ مرّة ، فإن الاسلام يأمر المسلمين مع علمهم بأن المشركين غادرون أن يستقيموا لهم على العهد طالما استقاموا .

وهذا توجيه القرآن الكريم للمسلمين بعد أن بيّن حقيقة المشركين وطبيعتهم ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلّا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحبّ المتّقين**﴾[٤٣] .

---

(٤٢) الآيتان (٥٥ ، ٥٦) من سورة الأنفال .
(٤٣) الآية (٧) من سورة التوبة .

فإذا وقع الغدر ، ونقض العهد ، كان المسلمون في حلّ من عهدهم ، لأنّهم في هذه الحالة يدافعون عن أنفسهم ، يردّون كيد العدوّ عنهم ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمّة الكفر انّهم لا أيمان لهم ، لعلّهم ينتهون . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أوّل مرّة أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم**﴾(٤٤) .

إن العدالة الحقّة ، والمنطق السليم يقتضيان ذلك ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله واعلموا أن الله مع المتّقين**﴾(٤٥) .

إن للقتال في الاسلام هدفاً ، وغاية ..

فهدفه تأمين الحياة للناس ..

وغايته سبيل المولى تبارك وتعالى ..

ومن هنا كانت فريضة الجهاد في الاسلام فريضة مقدّسة .

حقائق اسلاميّة هامّة :

وممّا سبق نستطيع أن نقف على عدّة حقائق إسلاميّة

(٤٤) الآيات (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥) من سورة التوبة .
(٤٥) الآية (١٩٤) من سورة البقرة .

هامّة ، نوردها فيما يلي :

١ ــ أن الاسلام بمبادئه وتعاليمه يقرّر الأخوّة العامّة ، ويقيمها على أساس من المودّة ، والمحبّة ، والتعارف ، ويجعل أقرب الناس إلى الخالق جلّ شأنه أبرّهم بعباده .

٢ ــ أن دعوة الاسلام تقوم على السلم والمسالمة ، وتعتمد على الحجّة وإقامة البرهان ، فلا يكره الاسلام أحدا على الدخول فيه ، ولا يقبل إلّا أن يوفّر الأمن والأمان والسلام لمتّبعيه ومخالفيه على السواء ، وهو يجعل العدل حكما في أحوال الناس ، دون أدنى تأثّر بحبّ أو بغض ، أو عداوة أو صلح ، يقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يآأيها الذين آمنوا : كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتّقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾**[٤٦] .

٣ ــ أن مشروعيّة القتال في الاسلام مختصّة بردّ الاعتداء ، ودفع الظلم ، كي تتوافر للناس حرّياتهم ، وتسلم لهم مقدّساتهم ، فهو دفع لتأمين البيع والصلوات والمساجد ، وتلك ليست أماكن العبادة للمسلمين وحدهم .

٤ ــ أن الاسلام يقدّر حرمة العهد والميثاق ، ويجعل الوفاء بهما من صميم الدين ، يقول المولى تبارك وتعالى : **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون﴾**[٤٧] .

---

(٤٦) الآية (٨) من سورة المائدة .

(٤٧) الآية (٩١) من سورة النحل .

٥ ــ أن الاسلام وهذه مبادئه ، وتلك تعاليمه ، لم يكن ليقيم علاقات الدول على التقاتل ، والخومة ، والتنابز ، بل يقيمها على المحبّة والمودّة ، والرحمة والتعاون ، ولا يمنعها اختلاف العقيدة عنده أن تلتقي على صلة الرحم ، ومفاهيم الرحمة ، وأسباب العدل والبرّ ، يقول المولى تبارك وتعالى :

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبّ المقسطين﴾[٤٨] .

وطبيعة الاسلام تأبى الاكراه ، وترفض التحكّم ، لأن هديه واضح ، وشريعته فطريّة سمحاء ، يقول المولى تبارك وتعالى :

﴿لا إكراه في الدين ، قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾[٤٩] .

يقول فخر الدين الرازي في كتابه «مفاتيح الغيب» ، المشهور بـ «التفسير الكبير» ، في تفسير هذه الآية : «إنّه تعالى لمّا بيّن دلائل التوحيد بيانا شافيا ، قاطعا للمعذرة .. قال بعد ذلك : إنّه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر في الاقامة على كفره ، إلّا أن يقسر على الايمان ، ويجبر عليه ، وذلك ممّا لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء ، إذ أنّ في القهر والاكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان» .

ومن هنا كان اعتماد الاسلام في القتال على المحارب فقط ، بدون التعرّض للمسالم أو المعتزل ، مهما كانت مخالفته لعقيدة الاسلام ، ولو كان القصد من القتال الاكراه

---

(٤٨) الآية (٨) من سورة الممتحنة .

(٤٩) الآية (٢٥٦) من سورة البقرة .

على الدخول في الاسلام لعمّ القتال الجميع .

٦ ــ أن الاسلام مع كونه يمدّ يد السلم ، ويقوم على المودّة والرحمة ، يأبى كلّ الآباء أن تدنّس مقدّساته ، وأن تمتدّ إليها أيّ يد بسوء ، أو أن يقوم السلم على أساس هضم الحقوق ، فتلك مسالمة يرفضها الاسلام ، لأنّه يأبى الظلم في أيّة صورة ، وعلى أيّ شكل من الأشكال ، بالنسبة لمتّبعيه أو مخالفيه على السواء ، يقول المولى تبارك وتعالى : **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فإصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحبّ المقسطين . انّما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتّقوا الله لعلّكم ترحمون﴾**(٥٠) .

فالاسلام أمر بقتال الفئة الباغية ، ولو اتّصفت بالايمان ، وأمر بالعدل في إقامة الصلح ، تقريرا للموّدة والمحبّة .

هذا حال الاسلام مع المسلمين ، لا يرضى أن يقوم باسمه بغي ، أو يقع بين عباد الله جلّ شأنه ظلم ، ولذا فإن العلاقة مع غير المسلمين مع كونها تقوم على المسالمة ، والبرّ والمودّة والرحمة ، ليست مسالمة ضعف ، أو برّ ناتج عن خوف ، أو مودّة نابعة عن ذلّة ، أو رحمة تحمل في داخلها السلبيّة والعزلة ، بل قوّة تحرس الحقّ وترعاه ، وتردّ الظلم وتأباه .

٧ ــ أن الاسلام لا يباغت أحدا ، ولا يغدر بأحد ، وهو يضع من القواعد للقتال والحرب ما يحقّق لها أسمى معاني

---

(٥٠) الآيتان (٩ ، ١٠) من سورة الحجرات .

[illegible]

[illegible] ٧

(١٠) [illegible]

[illegible]

وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ، ألا وهي القلب» .

فالارتباط بين الجانبين ضروري في نظر الاسلام ، لأنّ أحدهما محكوم بالآخر ، وخاضع له ، إذ لابدّ أن تتحقّق سيطرة الجانب الروحيّ على الجانب الماديّ ، ليستقيم سلوك الانسان .

ومحاولة النظر إلى أيّ من هذين الجانبين مستقلّا عن الجانب الآخر محاولة خاطئة ، محكوم عليها بالفشل من أوّل الأمر ، لأن الانسان يجمع في تكوينه بين خصائص مادّية ، وأخرى روحيّة ، ولقد نتج عن هذا المزج بين هذه الخصائص كلّها صفات ثالثة ، لها أثرها في مزاج الانسان وسلوكه .

ومن الخطأ أن ينظر إلى الانسان على أنّه مجموعة من العناصر المركّبة ، بل يجب أن ينظر إليه على أنّه شخصيّة ينبغي أن تتكامل فيها الجوانب الماديّة والروحيّة ، وأن كلّ جانب ينبغي أن يقوم بمهمتّه ووظيفته في حياة الانسان بانتظام وتنسيق مع بقيّة الجوانب الأخرى .

ومن ثمّ فإن الانسان يتمّيز بخصائص معيّنة لا توجد لدى غيره من الكائنات الحيّة ، ولعلّ هذا هو موطن الابتلاء الذي تحدّث عنه القرآن الكريم ، في قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**انّا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه**﴾[٥٢] .

وهكذا نجد شرائع الاسلام كلّها مددا متّصلا للانسان ، بلا تفرقة بين روحه وجسده ، لينهض برسالته ، ويحيا عاملا لغايته .

---

(٥٢) الآية (٢) من سورة الانسان .

[illegible]

[illegible]

لخلاص مجموعة من الناس ، أو لخلاص البشريّة ، فهي فكرة غريبة عن الاسلام ، وتتنافى مع الفكرة الأساسيّة يوم الحساب .

إن هذه التربية تجعل من الفرد إنسانا جديرا بتحمّل المسئوليّة والتّبعة ، وأن تناط به أمانة المولى تبارك وتعالى الغالية ، التى أتاحت لأفراد قلائل ربّاهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يفتحوا الدنيا ، وأن يضعوا أسس حضارة انسانيّة لم يعرف التاريخ في جميع مراحله التي مرّ بها ، والتي سيمرّ بها ، أكرم ولا أبرّ منها ، حضارة اجتازت حدود العبوديّة إلى سعة الحريّة ، ومن أسر الظلم إلى ساحة العدل ، ومن ظلام التقليد والجمود والجهل إلى نور المعرفة والعلم والفكر .

إن العناية بالفرد هي أساس إصلاح المجتمع ، إذ المجتمع في حقيقته ليس سوى مجموع أفراد ، والحقوق التي أعطاها الاسلام للفرد وأقرّها له ، تجعل منه سيّدا كريما ، يأخذ امتداده عن طريق خصائصه الذّاتيّة على أوسع مدى ، مقيّدا فقط بضوابط الخلق ، تلك الضوابط التي تجعل منه طاقة موجّهة للخير العام ، حتّى في أخصّ مطالبه ، ومنافعه الذّاتيّة .

وهذه الميزة في تكريم الفرد ، وتربيته ، وقيام الضوابط النّفسيّة المتفاعلة بتقوى المولى تبارك وتعالى ، وخشيته ، لا تجتمع له بصورة كاملة وصادقة في أيّ مذهب من مذاهب الفكر البشريّ ، لأنّه يعطي الجسد حظّه من متع الحياة الطيّبة ، التي تصونه وتحفظه ، وتحول بينه وبين أسباب الضعف ، كما يعطي النفس حظّها من التزكية بألوان العبادة المتّصلة بالعقيدة والسلوك الناشىء عنها ، حتّى لا تميل

وتنحرف عن طريق المولى تبارك وتعالى .

ولقد ارتبطت بالفرد واجبات ونيطت بوجوده ، وهذه الواجبات تتّجه إلى ثلاث نواح ، هي :

١ ــ واجب الفرد نحو نفسه .

٢ ــ واجب ربّه عزّ وجلّ عليه .

٣ ــ واجب مجتمعه عليه ، سواء كان خاصّا أو عامّا ، من الأسرة إلى المجتمع الانسانيّ العام .

فأمّا واجب الانسان نحو نفسه ، فالاسلام جعل النفس أمانه لديه ، يصونها بالرعاية والحفظ ، ويسأل بين يدي المولى سبحانه وتعالى عنها ، ومن أجل هذا لا يجوز لأيّ إنسان أن يفرّط في أمر نفسه ، ولا أن يتصرّف فيها بسوء ، لأنّها ليست ملكا له ، بل هي ملك لله عزّ وجلّ وحده ، فلا يتصرّف فيها إلّا بإذنه .

عن جندب بن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ أن النبّي ﷺ قال : «**كان فيمن قبلكم رجل به جرح فجزع ، فأخذ سكّينا فحزّ بها يده ، فما رقأ الدم حتّى مات .. قال الله عزّ وجلّ : بدرني عبدي بنفسه ، فحرّمت عليه الجنّة**» .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : «قال النبيّ ﷺ : «**من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردّى فيها خالدا مخلّدا فيها أبدا ، ومن تحسّى سمّا فقتل نفسه فسمّه يتحسّاه في نار جهنّم خالدا مخلّدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يلجأ بها بطنه في نار جهنم خالدا مخلّدا فيها أبدا**» .

والاسلام كما أوجب على الفرد أن يصون نفسه ، من كلّ ضارّ وخبيث ، فرض عليه أن يزكّيها بكلّ نافع طيّب .

ولذا نجد الاسلام يأمر باعداد الانسان من جميع جوانبه اعدادا يؤهلّه لرسالة الله عزّ وجلّ ، ويحمّله أمانته .

والاسلام ينظر إلى السعي كما ينظر إلى الصلاة ، فكلاهما عبادة يتقرّب بها إلى الله عزّ وجلّ ، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : **«من أمسى كالّا من عمل يده بات مغفورا له»** .

فالاسلام يقرّ نداء الفطرة ، ويستجيب لداعي الغريزة بالصورة التي يون بها حقوق النفس ، ويحفظ معها حقوق الآخرين .

وأوّل واجبات النفس على الفرد هي :

١ ــ أن يصونها من الحيرة والقلق والشكّ في مجال العقيدة والفكر .

٢ ــ أن يسعى لاجابة مطالبها المادّية صيانة لها ، في اعتدال وعدل .

٣ ــ أن يحصّنها بالعلم والمعرفة والأخلاق ، رعاية لآجلها وعاجلها ، وتحقيقا لسلامها وبرّها .

وهذه الواجبات الثلاثة لا يفرّط الاسلام في واحدة منها على الاطلاق ، فمن واجب الفرد في جانب العقيدة أن يتأمّل ويتبصّر ، ليدرك أن من وراء هذا النظام الدقيق قادرا ، وعالما ، ومدبّرا .

والاسلام لا يقرّ اكراه أيّ إنسان على أن يعتنقه ، بل يقدّم إليه الدعوة الاسلاميّة في فطرة هادية ، ويطلب إليه أن يتعرّف

والعدل ، وابتغاء مرضاة المولى تبارك وتعالى ، وأن يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ، وأن يعمل للخير ، ويتجنّب الشرّ ، وأن يتفاعل في شؤون أمّته ، وأن يجنّد نفسه لهذا الخير العام ، ليتأتّي التكافل الاجتماعيّ المنشود ، وتتحقّق الأخوة الانسانيّة الحقيقيّة الصادقة ، وألّا ستّجه إلى مجتمعه وهو ناظر إلى نفسه ، يستخدمه لمصلحته ، بل ينظر إلى مجتمعه ، ويستخدم نفسه لمصلحة المسلمين ، وبذلك تنمحي الأنانيّة والأثرة ، وتحيا المحبّة والإيثار .

ولقد أوجب الاسلام على كلّ مسلم ومسلمة التمسّك بمكارم الأخلاق ، وقد قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في هذا الشأن : «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا**» .

وطلب من المسلمين أن يخالطوا الناس بمحاسن الآداب وأجملها ، وأن يكونوا جميعا أمثلة حيّة ، وصورا ناطقة بالعدل والاحسان ، والوفاء بالعهد ، والصبر عند الشدائد ، والعفو عند المقدرة ، وما إلى ذلك من الخصال الحميدة ، والصفات الجليلة .

ولقد وصلت عناية الاسلام بمكارم الأخلاق إلى أن جعل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الخلق متعلّق رسالته في قوله : «**إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**» .

وقد أكثر الرسول ﷺ من توصياته في هذا الجانب ، حتّى قال : «**أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة : تقوى الله ، وحسن الخلق**» .

ويروى أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ ووقف بين يديه ،

وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ ..

فقال : «**حسن الخلق**» .

فجاءه من قبل يمينه وسأله السؤال نفسه ، وكان الجواب : «**حسن الخلق**» .

ثمّ جاءه من الشمال ، ومن الخلف ، وسأله السؤال ، وكان هو الجواب .

إن أخلاق هذا الدين مستمدّة من عقيدته ، وعقيدته فيها من العمق والثبات والرسوخ ما يعطي للأخلاق نفسها روح الثبات والقوّة والشمول .

واتّصال الأخلاق بالعقيدة يمنحها روح التجرّد من المنافع ، والتخلّص من الرياء الكاذب ، فلا ينهي الانسان عن خلق ويأتي مثله ، كما يتّخذ من دعوى الأخلاق سبيلا للكسب الرخيص ، واستغلال البسطاء والسذّج ، وإنّما تقوم الأخلاق في نفسه مقام المجاهد في ميدان الشرف والتضحية .

والأخلاق ليست نوعا من الدعة والسكون ، والتبتّل الكاذب ، وإنّما هي فضائل النفس الانسانيّة الكاملة ، من شجاعة ، وكرم ، وبرّ ، وإيثار ، وحبّ ، وعدل ، وحقّ ، وإحسان ، ورحمة ، وما إلى غير ذلك من الصفات الأخرى .

وهي ترتبط بالحكمة أشدّ ارتباط ، فكلّ خلق في الاسلام يرتبط بغايته التي إليها يقصد ، وليس للأخلاق سوى غاية واحدة ، وهي : الايمان بالمولى تبارك وتعالى ، واليوم الآخر ، وهذه الغاية هي التي تحدّد الباعث على العمل ، لتتجّه به في طريق مستقيم .

الفرد في مجال العلم والمعرفة والبحث :

لقد كشف الاسلام عن مدى عنايته بالعلم ، وحفاوته به ، ودعوته إليه ، مع جعله عبادة يتقرّب بها إلى المولى تبارك وتعالى ، حينما أوجبه على المسلمين والمسلمات ، وذلك في نصوص كثيرة من آيات القرآن الكريم ، ومن أحاديث ثبتت عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، منها :

يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**قل : سيروا في الأرض .. فانظروا كيف بدأ الخلق ثمّ الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كلّ شيء قدير**﴾[٥٦] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**وقل : ربّ .. زدني علما**﴾[٥٧] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**إنّما يخشى الله من عباده العلماءُ**﴾[٥٨] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**يؤتي الحكمة من يشآء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وما يذّكر إلّا أولوا الألباب**﴾[٥٩] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**وما يعقلها إلّا العالمون**﴾[٦٠] .

---

(٥٦) الآية (٢٠) من سورة العنكبوت .
(٥٧) الآية (١١٤) من سورة طه .
(٥٨) الآية (٢٨) من سورة فاطر .
(٥٩) الآية (٢٦٩) من سورة البقرة .
(٦٠) الآية (٤٣) من سورة العنكبوت .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**لا ينبغي لجاهل أن يسكت على جهله ، ولا لعالم أن يسكت على علمه**» .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم**» أي ومسلمة .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : «**ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلّا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع**» .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**لغدوة في طلب العلم أحبّ إلى الله من مائة غدوة في طلب غيره من الخير ، ولا يخرج أحد في طلب العلم إلّا وملك موكّل به يبشّره بالجنّة**» .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**الحكمة ضالّة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحقّ بها**» .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**اطلبوا العلم من المهد إلى اللّحد**» .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**لا بارك الله في يوم لا أزداد فيه علما**» .

ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون ، ومن كان يومه خيرا من أمسه فهو المؤمن**» .

إن العلم في اعتبار الاسلام هو : نتيجة النّظر والبحث ، والمشاهدة والتجربة ، التي تؤدّي إلى اليقين بالمعلومات ،

ويشبه ذلك العلم الذي يأتي عن طريق الوحي ، الذي يصحبه الايمان من المكلّفين ، ذلك لأنّ التصديق بالوحي متفرّع عن الايمان ، فتكون له نفس نتيجة النظر والتجربة ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا**﴾[٦١] .

فإذا أهمل الانسان سمعه ، أو بصره ، أو فؤاده ، ولم يستعمل أيّ واحد من هؤلاء في الوصول إلى الحقائق ، وركن إلى اتّباع ما لا ينبني على قاعدة علميّة من الأباطيل والأوهام ، فإنّه بذلك يكون قد خان أمانته ، وأبطل عمل القوى المدركة ، التي وهبها المولى تبارك وتعالى له ، واتّبع الذين يخضعون للظنون والأهواء ، فيكون مسئولا عن ابتعاده عن طريق المعرفة الحقّة ، وجريه وراء الهوى والخيال .

انّ نتائج العلم الباهرة يمكن أن تضع في يدا الانسانيّة أساس الاعتراف بقوّة مدبّرة ، ترعى هذا الكون وتصونه ، وتمسك أمره ، وتحكم حركته .

ولقد جاء على لسان رجل الفضاء الثاني الروسيّ الجنسيّة ، عقب عودته من رحلته مصوّرا ما شاهده ، قوله : «ولو سئلت عن منظر الأرض لقلت على الفور :

انّني كنت أستطيع أن أميّز الأنهار ، والجبال ، والحقول المزروعة ، وهذه التي تمّ حصدها .

وفي بعض الأحيان كان يظهر أفق الأرض من خلال فتحة السفينة ، وهو منظر ممتع حقّا .

---

(٦١) الآية (٣٦) من سورة الاسراء .

وكذلك كان من المثير فعلا أن أميّز السحب من الثلوج ، التي تكسو قمم الجبال ، بالظلّ ، الذي تصنعه السحب على الأرض .

ولكن أروع من هذا كلّه منظر الأرض وهي معلّقة في الفضاء ، انّه منظر لا يستطيع الانسان أن ينساه ، أو يضيع من خياله .

لقد شاهدت الأرض في هذه اللّحظات قريبة من الصورة التي نشهدها مرسومة على الخرائط .

وهي عبارة عن كرة أرضيّة ، وهي معلّقة في الفضاء ، وليس هناك من يحملها ، كلّ ما حولها : فراغ ، فراغ ، فراغ .

ولقد أصبت بالدهشة مدّة لحظات ، وسألت نفسي في دهشة :

ترى ما الذي يبقيها هكذا معلّقة هناك ؟ ..

لقد كانت تبدو وكأنّها معلّقة فوق رأسي أنا» .

انّه تساؤل فطريّ : «ترى ما الذي يبقيها هكذا معلّقة هناك ؟» ، وهذا التساؤل الفطريّ أجاب عنه القرآن الكريم في قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده ، إنّه كان حليما غفورا**﴾[٦٢] .

لقد انكشف للانسان أنّه على أرض تتحرّك به ، وتسبح في فضاء ، ومثلها وأعظم منها عشرات وعشرات ، بل مئات ومئات

(٦٢) الآية (٤١) من سورة فاطر .

ممّا لا يحصر أو يعدّ من الكواكب السيّارة ، والنجوم السابحة ، وصدق المولى تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿**وكلّ في فلك يسبحون**﴾[63] .

إن العلم يخدم قضيّة الايمان ، مع وفائه برضا الرحمن ، وكلّما تقدّمت الانسانيّة في مجال العلم كلّما زاد اليقين بأن الكون له خالق مدبّر ، حكيم ، قادر ، وقيام الايمان مع العلم لابدّ منه لتوافر الأمن ، وتحقّق السلام ، فلا أمن بدون إيمان ، ولا سلام بدون إسلام .

والاسلام عندما أرشدنا إلى البحث ، والنظر ، للاهتداء إلى الحقائق ، فتح أمامنا أبواب الحريّة في هذا المجال .

فإذا كان الانسان مؤاخذا في اعتبار الشريعة الاسلاميّة على إهماله في حقّ نفسه في النظر والبحث ، فمن باب أولى لا يجوز لأحد أن يمنع عنه أسباب العلم ، أو يحرمه من اتّخاذ كافّة الوسائل التي تمكّنه من أن يدرس ، ويجادل ، ويناظر ، ويبحث ، ويجرّب .

وإذا كان الاسلام يعتبر كلّ فرد مسئولا عن البحث في الحقائق العلميّة ، وتخليص العلم من الشوائب ، التي تتنافى مع الرواية الصحيحة ، أو التجربة المشاهدة ، أو الفكر السليم ، إذا كان الأمر كذلك فقد فتح باب العلم والمعرفة على مصراعيه أمام جميع الناس .

والاسلام حينما يحثّنا على العلم والمعرفة ، يبيّن لنا أن

---

(٦٣) الآية (٤٠) من سورة يس .

صاحبه يقترن ذكره بذكر المولى تبارك وتعالى ، وملائكته ، يقول الحقّ جلّ شأنه : ﴿**شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلّا هو العزيز الحيكم**﴾(٦٤) .

كما يبيّن لنا أن العالم لا يستوي مع الجاهل ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾(٦٥) .

وصرّح بأن المؤمن العالم ، والمؤمن الجاهل درجات ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾(٦٦) .

يقول عبد الله ابن عمر البيضاوي ، في كتابه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ، في تفسير هذه الآية الكريمة : «يرفع الله الذين آمنوا منكم بالنصر ، وحسن الذكر في الدنيا ، وإيوائهم في غرف الجنان في الآخرة» .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿**والذين أوتوا العلم درجات**﴾ : ويرفع العلماء منهم خاصّة درجات ، بما جمعوا من العلم والعمل ، فإن العلم مع علوّ درجاته يقتضي العمل المقرون به مزيد الرّفعة ، ولذلك يقتدي بالعالم في أفعاله ، ولا يقتدى بغيره ، وفي الحديث الشريف يقول الرسول : «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**» .

---

(٦٤) الآية (١٨) من سورة آل عمران .

(٦٥) الآية (٩) من سورة الزمر .

(٦٦) الآية (١١) من سورة المجادلة .

إنّ الاسلام وهو يدعو إلى التدبّر وأعمال الفكر يتوجّه بالخطاب إلى العقل البشريّ ، وهو يسوق الأدلّة ، ويوضّح الفائدة والحكمة في كلّ ما يأمر به ، والأضرار والأخطار في كلّ ما ينهي عنه ، ليكون سلوك الانسان في حياته عن حريّة واقتناع ، وعلى ضوء المعرفة ، حتّى لا يصبح أشبه ما يكون بآلة صمّاء .

تعظيم القرآن الكريم للعقل :

ولقد لفت القرآن الكريم أنظار الباحثين من المسلمين وغير المسلمين إلى شدّة العناية بالعقل ، ودعا إلى تعظيمه ، والرجوع إليه بطريق مباشر وغير مباشر ، في الوقت الذي تشير فيه كتب الأديان الأخرى إلى العقل بمنتهى التحفّظ .

والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلّا في مقام التعظيم ، والتنبيه إلى وجوب العمل به .

ويشير القرآن الكريم إلى العقل بمعانيه المختلفة ، مستخدما في ذلك الألفاظ التى تدلّ عليه ، أو تشير إليه من مكان قريب أو بعيد ، من : التفكّر ، والفقه ، والذكر ، والرأى ، والتدبير ، والقلب ، وأولي الألباب ، وما إلى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقليّة على اختلاف معانيها وخصائصها .

ولو ألقينا نظرة احصائيّة على عدد الكلمات الموحية ، أو الدّالة على العقل في القرآن الكريم ، لوجدنا الآتي :

١ ـــ كلمة «العقل» : وردت هذه المادة بصيغة الفعل المضارع في خمسين

آية من آياتِ القرآن الكريم .

٢ ــ كلمة «التفكّر» : وردت مادة التفكّر بصيغة الفعل المضارع في سبع عشرة آية من آيات القرآن الكريم .

٣ ــ كلمة «التدبّر» : وردت بصيغة الفعل المضارع في أربع آيات من آيات القرآن الكريم .

٤ ــ كلمة «الفقه» : وردت بصيغة الفعل المضارع في عشرين آية من آيات القرآن الكريم .

٥ ــ كلمة «العلم» : وردت كلمة «العلم» في القرآن الكريم في أكثر من خمسمائة آية ، وليس المراد بها علم خاص ، وانّما المقصود بها : كلّ علم نافع ، يفتح آفاق العقل ، ويمكّن الانسان من إدراك الحقّ .

٦ ــ كلمة «أولي الألباب» : وردت هذه الكلمة في ستّ عشرة آية ، بصيغ مختلفة .

٧ ــ كلمة «الرأى» : وهي بمعنى «التفكّر» ، وردت هذه الكلمة بهذا المعنى في أكثر من ثمانين آية .

هذه هي بعض الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم ، ولها صلة وثيقة بالعقل ، والتفكير ، وهي في مجموعها تقيم الدليل بطريقة محسوسة لا شكّ فيها ، ولا غبار عليها .

أمّا موقف السنّة النبويّة الشريفة من العقل ، فقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، منها :

عن أبي أمامة ، وأبي معين ــ رضي الله عنهما ــ عن السيّدة عائشة ــ رضي الله تعالى عنها ــ أنّها قالت : قال رسول الله ﷺ : «**أوّل ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل .. فأقبل ، ثم قال له : أدبر .. فأدبر ، ثمّ قال الله عزّ وجلّ : وجلالي ، ما خلقت خلقا أكرم منك عليّ ، بك آخذ وبك أعطي ، وبك أثيب وبك أعاقب**» .

وعن أبي سعيد الخدريّ ــ رضي الله عنه ــ أنّه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لكلّ شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الفجّار في النار : «لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير**» .

بتلك الآيات القرآنيّة الكريمة ، وما جرى مجراها من الأحاديث النبويّة الشريفة ، والهدي المحّمدي ، تمكّن الاسلام من أن يوجّه العقل إلى التفكير ، وإلى التأمّل والتدبّر ، حتّى

تزول الحجب الكثيفة التي تحول بينه وبين الرؤية الصحيحة في الأشياء ، وأمكنه كذلك أن يبعث أمّة جديدة تعتمد على العقل ، والتفكير ، والبحث ، وتستخدمها في مختلف شؤونها الحياتيّة ، فتفتّحت أمامها بذلك آفاق غير محدودة في هذا العالم الكبير .

لقد استطاعت الشريعة الاسلاميّة أن تؤاخي بين الدين والعقل ، وأن تجعل من هذه الفطرة فطرة سليمة مستقيمة .

ثالث الضرورات الخمسة :

إن الاسلام اعتبر العقل من المصالح الضروريّة التي لا يستقيم عمران الكون وازدهاره ورقّيه إلّا بها ، فكان حفظ العقل وصيانته ثالث المقاصد الضروريّة التي اعتنى بها الاسلام بعد حفظ الدين والنفس .

لذلك أوجب علينا تنميته بالتفكير الصحيح ، وصقله بالتوجيه السليم ، حتّى تتكوّن له قوّة التمييز والتفريق بين الحسن والقبيح .

كما أوجب علينا من ناحية أخرى حمايته من كلّ ما يسبّب له خللا في عمله ، أو اضطرابا في سيره ، ولذلك حرّمت الشريعة الاسلاميّة شرب الخمر ، وتعاطي المخدّرات ، وبيعها ، وترويجها ، صيانة للعقل ، ووقاية للجسم ، وحفاظا على كرامة الانسان ، وحرّمت الزنا صونا للانسان من أسباب التدمير المادّي والمعنويّ ، وعلى العموم فقد حرّمت الشريعة الاسلاميّة كلّ ما من شأنه أن ينال من الانسان بضعف ، أو يعرّضه لنقص .

وإذا اقتنعنا بأن الاسلام يعتمد كلّ الاعتماد على العقل البشريّ السليم في جميع أحكامه ، وكلّ توجيهاته ، واقتنعنا بأنّه يفتح أمام العقل آفاقا بعيدة للتطلّع والاستطلاع ، فهل يسوغ لنا بعد ذلك أن نشكّ ولو للحظة واحدة في كونه يستطيع أن يساير التطوّر البشريّ ..

وهل يصحّ أن نرتاب في أنّه يستطيع أن يلمّ بكلّ المشكلات والأحداث التي تمرّ بنا ونصادفها في حياتنا ؟ ..

وهل يتأتّى لنا بعد ذلك أن نعتبر الدين الاسلاميّ دينا جامدا كبقيّة الأديان الأخرى التي وقفت جامدة وانتهت بالتحريف والتبديل ؟ ..

بالقطع لا يسوغ لنا أن نظنّ ذلك أو نرتاب في صلاحية الدين لكلّ زمان ومكان ، لأن الاسلام يساير كلّ ما يحقّق سعادة الانسان وكرامته ، ولا يعرقل سير تقدّمه ، إذ أنّ من خصائصه الدعوة إلى كلّ ما يحقّق أمن وسعادة وكرامة الانسان ، ليتبوّأ مكانه خليفة لله عزّ وجلّ على الأرض .

إن الكثير من الشباب ممّن أعمتهم الحضارة الغربيّة ، وتقدّمها الصناعيّ والماديّ ، وفكّروا في التخلّص من رواسب الماضي ، أصبحوا يتساءلون :

هل الشريعة الاسلاميّة بما تنطوي عليه من مبادىء وتعاليم قادرة على مواجهة تيّار التقدّم الماديّ في عصرنا الذي نعيش فيه ؟ ..

هل الشريعة الاسلاميّة هي شريعة الحياة التي تستطيع أن تحقّق للانسان كلّ السعادة في الدنيا كما وعدته بسعادة الآخرة ؟ ..

هل الاسلام قابل للتجديد والتطوّر خاصّة وأن الحياة قد تطوّرت في جميع مظاهرها ؟ ..

نعم .. إن الشرعية الاسلاميّة قادرة على مواجهة التقدّم الماديّ ، وبغيرها لا يستطيع الانسان أن يعيش سعيدا في الدنيا كما سيكون سعيدا في الآخرة .

إن من أوجب الواجبات على رجال الفكر الاسلاميّ وممّن يحملون على عاتقهم عبء الدعوة ألّا يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه التساؤلات ، بل عليهم معالجة مثل هذه الأمور من أساسها ، ومواجهة هذا الخطر بكُلّ ما يستحقّه من عناية وحكمة ، لأن التطوّر سنّة من سنن المولى تبارك وتعالى ، وهو قانون من قوانين الحياة الضروريّة التي لا مفرّ منها ، والتي تجري على الانسانيّة سواء أرادت هذا أو لم ترد .

والتطور في التشريع الاسلاميّ هو : قدرة الانسان على ابتكار الأحكام لحوادث جديدة ملائمة ، وللظروف التي تمرّ بتطوّر الزمان ، مستندا إلى كتاب المولى تبارك وتعالى ، وسنّة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، ومبادىء الاسلام العامّة .

وهذا هو ما يسمّيه الفقهاء بـ «الاجتهاد» ، فليس التطوّر إذن هو تغيير الدين ، أو التحوّل عن أهدافه ومبادئه ، أو التبعيّة لأيّ تيّار من التيّارات الفكريّة أو الماديّة ، لأن هذا لا يسمّى تطوّرا وتجديدا ، بل يسمّى هدما وتحلّلا وذوبانا .

ميدان التطوّر والتجديد :

إن احترام الدين من أوجب الواجبات على الانسان ، لأنّه

عقيدتنا ، وشريعتنا التي نسير عليها ، ونستظلّ بها ، فلا يجتهد فيه إلّا من كان عالما به ، مدركا لأحكامه الصريحة الواضحة ، والتي دلّت عليها نصوص القرآن الكريم ، والسنّة النبويّة الشريفة ، والأحكام الاجتهاديّة المبنّية على علّة مبتدلة ، أو عرف متغيّر ، أو تحقيق مصلحة ، أو دفع ما يفسد .

وميدان التجديد والتطوّر لا يمكن أن يتناول كلّ ما جاءت به الشريعة الاسلاميّة من أحكام ومبادىء ، فالايمان بوحدانيّة المولى تبارك وتعالى على سبيل المثال من المبادىء الأصليّة ، والحقائق اليقينيّة التي لا يمكن بأيّ من الأحوال تغييرها ، وكذلك العبادات ، فهي كلّها قربات للمولى تبارك وتعالى ، وقد حدّدت طرقها بواسطة الوحي ، وعمل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، فتغييرها يعدّ خروجا عمّا رسمه الله عزّ وجلّ من الطرق الخاصّة التي ارتضاها لعباده في تقرّبهم إليه .

أمّا الأحكام الخاصّة بالمعاملات والأحكام الدستوريّة ، فإن مجال الاجتهاد فيها مفتوح الأبواب فيما لا نصّ فيه ، لأن الحوادث والوقائع لا تنحصر ، والأدلّة التي وردت في القرآن الكريم ، والسنّة النبويّة الشريفة ، أو نصّ عليها العلماء منحصرة ، أمّا تقرير حكم المولى تبارك وتعالى فيما سيحدث من المسائل ، لا يجوز أن يبتّ فيه إلّا أولوا العلم من المسلمين ، الذين يبذلون غاية جهدهم على أن تكون شريعة الله عزّ وجلّ حاكمة لا محكومة ، وموجّهة لا موجّهة .

ومجال هذا العمل الواسع الرّحب يحتاج بدون شكّ إلى استخدام قوّة العقل ، التي منحها المولى تبارك وتعالى

ويمدّ له يد المعاونة عند الحاجة .

ويهديه إذا ضلّ ، ويرشده إذا غوي .

ويرحمه إذا ضعف .

ويعامله بما يجب أن يعامل به .

ويحفظه في ماله وعرضه حاضرا وغائبا .

ويبيّن هذا كلّه قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : **«المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم ، كلّ المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه . إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، التقوى ههنا ــ ويشير إلى صدره ــ ، ألا لا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»** .

ولقد ظهر الاخاء واضحا جليا في صفات المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وفي أصحابه ، في تعاونهم وتوادّهم ، وفي تعاطفهم وتراحمهم ، وفي تعاملهم بالبرّ والرحمة ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يجالس أصحابه ، ويتكلّم معهم ، ويبدؤهم بالسلام ، ويداعب أطفالهم وكأنّهم أولاده ، ويحثّ أصحابه على زيارة المرضى ، وتشييع الجنازات ، والعطف على الفقراء ، والرحمة بالمساكين ، والبرّ باليتامى ، ويبشرّهم بالجنّة إن هم فعلوا ذلك .

ومن أبرز مظاهر الاخاء أن يؤثر المسلم غيره على نفسه ، ويقدّم ما فيه منفعته وخيره على منفعته وخير نفسه ، ولقد

اتّصف المسلمون على عهد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بهذه الصفة الحميدة .

وكان المسلم من الأنصار يحبّ أن يقتسم ماله وداره مع أخيه المهاجري ، بنفس طيّبة ، وبقلب راض ، بل ويطلّق بعض أزواجه ليتزوّجها أخوه المهاجريّ ، الأمر الذي أدّى إلى حدّ ما إلى تخفيف آلام المهاجرين في غربتهم ، فقد كانوا يتألّمون لفراق الأهل والأحبّة في «مكّة» .

ومن أوضح الأمثلة على ذلك : أن عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع الأنصاريّ ، كانا أخوين في الله عزّ وجلّ .

ولم يكن عبد الرحمن بن عوف يملك في «المدينة» شيئا ، فقال له سعد بن الربيع : «أي أخي : أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فانظر شطر مالي فخذه ، وتحتي امرأتان ، فانظر أيّهما أعجب إليك حتّى أطلّقها» ، فقال له عبد الرحمن : «بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلّوني على السوق» .

وبدأ عبد الرحمن بن عوف نشاطا تجاريّا محدودا ، فقد أخذ يبيع الجبن والزبدة ، حتّى استطاع في وقت قصير بما لديه من خبرة في أمور التجارة أن يصبح ثريّا .

ولم تمض فترة طويلة من الوقت حتّى كانت له قوافل تجاريّة تذهب وتجيء ، ثمّ تزوّج بامرأة من الأنصار بوزن نواة من الذهب ، وعندما لقيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : ومظاهر العرس بادية عليه استفهم منه فإخبره بالخبر فقال له ﷺ : «**أوْلِمْ ولو بشاة**» ، أي : اصنع وليمة لعرسك .

وهكذا ضرب سعد بن الربيع الأنصاريّ مثالا فريدا في

الايثار ، والتكافل الاجتماعيّ ، وضرب عبد الرحمن بن عوف متالا لعزّة النفس ، والرغبة في العمل والاكتساب ، عن طريق يده وعرقه وجهده .

وصنع صنيع عبد الرحمن بن عوف ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ الكثير من المهاجرين ممّن لهم خبرة بالأمور التجاريّة .

أمّا الذين لم يكونوا يعرفون شيئا عن التجارة ، فقد عملوا في أراضي الأنصار مزارعة مع ملاّكها .

وأمّا من كانوا في حالة شديدة من الفقر ، وليس لهم عمل يستطيعون تأديته ، ولا مكان يلجأون إليه ، فقد أفرد لهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه صفّة في المسجد يبيتون فيها ، ويأوون إليها ، ولذلك سمّوا «أهل الصّفة» ، وجعل لهم الرسول ﷺ رزقا من أموال المسلمين من المهاجرين والأنصار ، الذين أنعم المولى تبارك وتعالى عليهم بالرزق .

وكان من بين «أهل الصّفة» أبو ذر الغفاريّ ، وأبو هريرة ـــ رضي الله تعالى عنهما ـــ .

ولقد وصف أبو هريرة حالة البؤس والعدم التي كان عليها هو وزملاؤه بقوله : «لقد كان ليغشى عليّ فيما بين بيت عائشة وأمّ سلمة من الجوع» وكان البعد بين البيتين يعدّ بالخطوات .

وكان من أثر ايثار الأنصار للمهاجرين أن قال المهاجرون للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه :

ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أكثر بذلك في كثير .. لقد كفونا المؤنة ..

وأشركونا في المهنأ ..

حتّى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كلّه ..

فجاوبهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بقوله : «**لا .. ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم**» .

ولم يكن هذا الاخاء متّخذا شكلا صوريّا ظاهريّا ، بل كان نابعا من القلب بكلّ ما فيه من صفاء ونقاء ، ولقد قال المولى تبارك وتعالى في شأنه : ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض**﴾[1] .

وقد قال ابن عباس — رضي الله تعالى عنهما — : آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم ، فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاريّ ، إذا لم يكن له بالمدينة وليّ مهاجر ، ولا توارث بينه بين قريبه غير المسلم ، ويدّل على ذلك قول الله تعالى : ﴿**والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتّى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر**﴾[2] .

فمن هذا القول نعلم أن الولاية في الميراث ، لا في النصر والمؤازرة ، ولذلك أوصى حمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ ، وأسد الله وأسد رسوله ، أوصى في بداية موقعة «أحد» بأن يرثه أخوه في الله زيد بن حارثة ، في حالة استشهاده في هذه الموقعة .

بيد أن التوارث بالاخاء لم يستمرّ طويلا ، فقد نزل قول الله

(١) الآية (٧٢) من سورة الأنفال .

(٢) الآية (٧٢) من سورة الأنفال .

تبارك وتعالى : ﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكلّ شيء عليم**﴾[٣] .

فقد نسخت هذه الآية الكريمة سنّة التوريث بالمؤاخاة ، لأن المسلمين خرجوا من موقعة «بدر» منتصرين غانمين ، وهزموا «قريشا» ، وألحقوا بها خسائر فادحة ، وأمنوا جانب التهديد بهجوم خارجيّ ، ووهنت شوكة المنافقين واليهود بـ «المدينة» ، ولم يعد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في حاجة إلى موادعتهم وإلى محالفتهم ، لأنّهم قد صاروا خاضعين لقانون الدولة الاسلاميّة مرغمين ، وقد أصبح أولوا الأرحام للمهاجرين والأنصار مسلمين ، فلا مبرّر لحرمانهم من الميراث في أقاربهم ، بيد أن نفي التوريث لا ينفي الاخاء نفسه ، لأن هذه العاطفة قويت بمرافقة الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ ، وإعلاء دينه .

ويقول عبد الرحمن السهيليّ الأندلسيّ ، في كتابه «الروض الأنف» ، في هذا الشأن :

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشدّ أزر بعضهم ببعض .

فلمّا عزّ الاسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحدة ، أنزل الله سبحانه : ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ ، أعني : في الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلّهم اخوة ،

---

(٣) الآية (٧٥) من سورة الأنفال .

فقال : ﴿**إنّما المؤمنون اخوة**﴾(٤) ، يعني في التوادّ وشمول الدعوة .

وكان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كلّما رأى بادرة من بوادر الانقسام ، أو ظاهرة من ظواهر التفرّق قضى عليها في وقتها ، وأخمد نار الفتنة في مهدها ، فقد ساء اليهود وآلمهم «في قلوبهم ما شاهدوه من تآخي الأنصار ، وتعاطفهم على بعضهم البعض ، واجتماعهم بعد التفرّق والانقسام ، فدبّروا مكيدة ليوقعوا بها بين قبيلتي «الأوس» و «الخزرج» ، حتّى تنشب الحرب بينهما من جديد .

فبعثوا غلاما إلى جماعة من الفرقتين يذكّرهم بيوم «بعاث» ، ذلك اليوم الذي انتصرت فيه قبيلة «الأوس» على قبيلة «الخزرج» ، فحدث نقاش بين الفريقين ، وحميت نفوسهم ، واشتدّ الغضب بهم .

وعندما بلغ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ما حدث ، وأنّه غضب بعضهم على بعض وتنادوا بشعاراتهم ، وتواعدوا إلى «الحرّة» ، قام من فوره مسرعا إليهم ، وأخذ يهدّىء من ثورتهم ، ويسكتهم ، وهو يقول : «أبدعوى الجاهليّة وأنا بين أظهركم ؟» ، فندموا على ما بدر منهم ، وثابوا إلى رشدهم ، واصطلحوا ، وتعانقوا ، وألقوا السلاح .

وقد امتنّ المولى تبارك وتعالى عليهم بهذه الوحدة في قوله عزّ وجلّ : ﴿**واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة**

---

(٤) الآية (١٠) من سورة الحجرات .

من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون﴾(٥) .

وبلغ من حرص المصطفى صلوات الله وسلامه عليه على تلافي أسباب الفرقة أنّه كان لا يخصّ أحدا بشرف أو بفضل ، فعند وصوله إلى «المدينة» مهاجرا إليها من «مكّة» ، ترك ناقته تبرك حيث شاء لها الحقّ جلّ وعلا أن تبرك ، ولم يؤثر أحدا بالنزول عنده مراعاة لشعور الآخرين .

وعندما توفّى أسعد بن زرارة ـــ رضي الله عنه ـــ نقيب «بني النجار» ، أخوال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وكان من أوائل الأنصار الذين بايعوه في «مكّة» ، ووجده رسول الله ﷺ عند وصوله إلى «المدينة» يقيم الصلاة للمهاجرين والأنصار الذين سبقوه ، وكان يرسل الطعام والموائد للرسول صلوات الله وسلامه عليه خلال الفترة التي قضاها في دار أبي أيّوب الأنصاريّ ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ ، والتي بلغت تسعة أشهر ، فلمّا توفّى هذا الصحابيّ الجليل حزن عليه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حزنا شديدا ، وجاء أتباعه من «بني النجار» قائلين : إن هذا قد كان منّا حيث قد علمت ، فاجعل منّا رجلا مكانه ، يقيم من أمرنا ما كان يقيم .. فأجابهم رسول الله ﷺ بقوله : «**أنتم أخوالي ، وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم**» .

ولم يشأ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يختار نقيبا من بينهم خلفا لأسعد ابن زرارة ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ ،

---

(٥) الآية (١٠٣) من سورة آل عمران .

كي لا يحدث بينهم ما يؤثّر على وحدتهم ، وعلى إخائهم ، لأن النقابة كانت من مفاخر العرب ، فلم يرد أن يخصّ بذلك البعض دون البعض .

إن دعوة الاخاء تتّفقق وطبيعة الاسلام ، لأنّه دين المحبّة ، والمودّة ، والسلام ، ولهذا كوّن الجماعة الاسلاميّة القويّة ، التي لا تأخذ بالظلم ، ولا ترضى بالذلّ ، ولا تقبل الهوان ، وانّما تثبت في كلّ مجال ، وتأخذ بالذمام .

والتاريخ خير شاهد على ذلك ، فلولا الأخوّة الاسلاميّة التي ربطت ين المسلمين برباط متين مقدّس ، لاستطاع المستعمرون بعد أن اقتسموا البلاد الاسلاميّة أن يقضوا على شخصيّتها ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، لأن الاخاء الذي يربط المسلم بأخيه المسلم اخاء أرواح لا اخاء أبدان ، والارتباط بينهم ارتباط ايمان لا ارتباط أوطان .

والاخاء مبدأ من المبادىء النبيلة السامية ، التي تنشر بين الناس روح التسامح ، وروح التعاطف ، وتشيع بينهم التراحم والايثار ، فإذا كان الاخاء في سبيل اعلاء راية الدين ، وفي سبيل المولى تبارك وتعالى ، بلغ الحبّ بين الناس أعلى درجاته ، ووصلت المودّة بينهم أقصى مبلغ ، لأنّه اخاء دائم لا ينفصل ، ولأنّه من صنع المولى تبارك وتعالى .

والله عزّ وجلّ هو الذي يتعهّده بعنايته ، ويتولّاه برعايته ، وصدق الحقّ تباركت أسماؤه حيث يقول : ﴿**إنّما المؤمنون اخوة**﴾[٦] .

---

(٦) الآية (١٠) من سورة الحجرات .

أخوّة حبّ وتعاون .
أخوّة عطف وتسامح .
أخوّة أرواح لا أبدان .
أخوّة اتّصال لا انفصال .
أخوّة كفاح في سبيل اعلاء راية الدين .
أخوّة إيثار ونبل .

أخوّة غايتها وهدفها «الايمان بالله عزّ وجلّ» ، ذلك الايمان الذي يعدّ أصدق وسيلة لتحقيق الأخوّة البارّة ، التي ظهر أثرها واضحا في التكافل الفريد الذي تمّ بين المهاجرين والأنصار ، والذي أثنى المولى تبارك وتعالى عليه بقوله : ﴿**والذين تبوّأوا الدار والايمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[7] .

فباسم «الايمان بالله عزّ وجلّ» يتّجه الفرد والمجتمع جميعا في وحدة متراصّة ، وكيان متماسك ، تسري فيه روح واحدة ، وتعمل عملها في الجسد الواحد ، الذي يتأثّر لأيّ شيء يصيبه ، في أيّ جزء من أجزائه .

إن الروح في الجسد هي سرّ حياته ، وتماسكه ، وسبب سمعه ، وبصره ، وإحساسه ، وإدراكه ، وكذلك الايمان في حياة الناس وأحوال المجتمع ، هو سرّ الحياة والتماسك ،

---

(٧) الآية (٩) من سورة الحشر .

(١١) [illegible] (٥١) [illegible] ·
(٠١) [illegible] (١ ، ٢ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٨) [illegible] ·
(٦) [illegible] (٨٥) [illegible] ·
(٧) [illegible] (٨٥) [illegible] ·

[illegible] (١١) ·

[illegible] (١٠) ·

[illegible] (٦) ·

[illegible] (٧) ·

[illegible]

الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربّهم يتوكّلون ، الذين يقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقّا ، لهم درجات عند ربّهم ، ومغفرة ورزق كريم﴾[١٢] .

وباسم هذه الغاية طالب الاسلام بتحقيق الفضائل الانسانيّة ، التي تعصم سلوك الناس ، وتحقّق التعاون والبرّ بينهم .

يقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا : استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنّه إلي تحشرون﴾**[١٣] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا : اتّقوا الله ، وكونوا مع الصادقين﴾**[١٤] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا : أنفقوا من طيّبات ما كسبتم وممّا أخرجنا لكم من الأرض﴾**[١٥] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا : اتّقوا الله ، وقولوا قولا سديدا﴾**[١٦] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا : أوفوا بالعقود﴾**[١٧] .

---

(١٢) الآيات (٢ ، ٣ ، ٤) من سورة الأنفال .

(١٣) الآية (٢٤) من سورة الأنفال .

(١٤) الآية (١١٩) من سورة التوبة .

(١٥) الآية (٢٦٧) من سورة البقرة .

(١٦) الآية (٧٠) من سورة الأحزاب .

(١٧) الآية (١) من سورة المائدة .

وباسم هذه الغاية نهى الاسلام عن كلّ ما من شأنه أن يحول دون كرامة الفرد ، وترابط الجماعة .

يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**يأيّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله ، واتّقوا الله ، إن الله سميع عليم . يأيّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم ، وأنتم لا تشعرون**﴾[١٨] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا : إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾[١٩] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**يأيّها الذين آمنوا لا يسخر قوما من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ إن بعض الظنّ اثم ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتّقوا الله ، إن الله توّاب رحيم**﴾[٢٠] .

---

(١٨) الآيتان (١ ، ٢) من سورة الحجرات .

(١٩) الآية (٦) من سورة الحجرات .

(٢٠) الآيتان (١١ ، ١٢) من سورة الحجرات .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾**[٢١] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾**[٢٢] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقي من الربا ، إن كنتم مؤمنين﴾**[٢٣] .

ويجعل الاسلام ما يصيب الناس من خير ناشئا عنها وواقعا بها :

يقول المولى تبارك وتعالى : **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا ، واتّقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾**[٢٤] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا ، واتّقوا ، لكفّرنا عنهم سيّئاتهم ، ولأدخلناهم جنّات النعيم﴾**[٢٥] .

ويقول المولى تبارك وتعالى : **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم﴾**[٢٦] .

---

(٢١) الآية (٩) من سورة المنافقون .

(٢٢) الآية (٢٧) من سورة الأنفال .

(٢٣) الآية (٢٧٨) من سورة البقرة .

(٢٤) الآية (٩٦) من سورة الأعراف .

(٢٥) الآية (٦٥) من سورة المائدة .

(٢٦) الآية (٢) من سورة محمد .

[illegible]

ـ رضي الله تعالى عنه ـ : «إلى من تجعل ديوانك ؟» ، فقال بلال : «مع أبي رويحة ، لا أفارقه للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقدها بيني وبينه» .

وقد أنتجت هذه البذور ثمارها في الأمّة الاسلاميّة ، فكانت :

إذا هوجمت دافعت .

وإذا حاربت انتصرت .

وإذا أقدمت على أمر كتب لها النجاح فيه .

وإذا اعتدى عليها عدوّ كانت عاقبته الهزيمة والمذلّة والانكسار .

تلك هي الأمّة التي يقف المولى تبارك وتعالى بجانبها ، ويؤيّدها بعونه ، ويكتب لها النصر ، والسموّ ، والرفعة على الدوام ، وصدق المولى تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿**وكان حقّا علينا نصر المؤمنين**﴾[30] .

الفرد في مجال العمل :

إنّه لو جاز لأيّة أمّة من الأمم منذ خلق المولى تبارك وتعالى الأرض ، وإلى أن يرثها ومن عليها ، أن تتواني عن العمل ، أو تتباطأ فيه ، أو ترضى منه بالقليل ، لما جاز ذلك بالنسبة لأمّة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، تلك الأمّة التي جعلها الله عزّ وجلّ أمّة وسطا ، وخير أمّة أخرجت للناس ، ذلك لأن العمل في الاسلام بآفاقه المديدة التي لا تحدّها

(٣٠) الآية (٤٧) من سورة الروم .

وفي قوله عزّ وجلّ : ﴿**لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم**﴾[٣٣] .

فممّا يميّز الانسان ويضعه في مقام السموّ والرفعة والتشريف عن بقيّة المخلوقات الأخرى ، أنّه يستطيع أن يعمل بيده .

وممّا يدلّ على شرف العمل اليدويّ أن المولى تبارك وتعالى نسبه إلى نفسه ، وذلك في قوله عزّ وجلّ : ﴿**قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين ؟**﴾[٣٤] .

وفي قوله عزّ وجلّ : ﴿**أو لم يروا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون**﴾[٣٥] .

وقد قرن الحقّ سبحانه عزّ وجلّ بين العمل وبين سائر العبادات في كتابه الكريم ، فيدلّ قوله عزّ وجلّ شأنه : ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض**﴾[٣٦] ، على الجمع بين العمل والصلاة .

وأنزل في صدر الحديث عن الحجّ قوله تبارك وتعالى : ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم**﴾[٣٧] ، فدلّ ذلك على جواز الجمع بين العمل والحجّ ، بعد أن كانوا يحرّمونه في الجاهليّة .

---

(٣٣) الآية (٤) من سورة التين .

(٣٤) الآية (٧٥) من سورة ص .

(٣٥) الآية (٧١) من سورة يس .

(٣٦) الآية (١٠) من سورة الجمعة .

(٣٧) الآية (١٩٨) من سورة البقرة .

وقد تحرّج المسلمون في أوّل الأمر من العمل في الحجّ ، فأنزل المولى تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة .

ولقد لفت الاسلام أنظار المسلمين إلى العمل كثيرا ، حتّى لا يزعم أحد أنّ الدين يجافيه ، أو أن التوكّل ينافيه ، بل لقد عدّه من صميم القربات .

إن العمل في حقيقته ليس إلّا نوعا من العبادة ، يتقرّب به الانسان إلى خالقه عزّ وجلّ ، ويثاب عليه إن كان حلالا طيّبا ، ويعاقب عليه إن كان خبيثا حراما .

يقول المولى تبارك وتعالى : **﴿وقل : اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾**(٣٨) ، فعمل الانسان وإن قلّ شأنه ، ولو كان الاحتطاب ، أو جمع أغصان الشجر المتساقطة ، أفضل وأشرف وأكرم للانسان من أن يقعد ساكنا ، ينتظر المعونات والصدقات ، ويمدّ يده في ذلّة وهوان وضعف إلى من يعينه ويتصدّق عليه .

ولا تقف الأعمال الصالحة التي يدعو إليها المولى تبارك وتعالى ، ويشيد بها القرآن الكريم عند حدّ أعمال القلب ، ولكنها تتجاوز ذلك إلى جميع أنواع السلوك الانسانيّ ، وما يترتّب عليه إزاء الفرد ، وإزاء الجماعة على السواء ، حتّى يخلق المجتمع السليم الناهض ، والوثّاب إلى النجد .

وليس من العمل في شيء الاعتذار عن التقصير ، أو دعوى الجدّ والتشمير بدون أن يقوم على ذلك أثر واضح ملموس في الحياة الاجتماعيّة ، والسلوكيّة .

---

(٣٨) الآية (١٠٥) من سورة التوبة.

إن العمل ما هو إلّا بذل الطاقة ، والقدرة على اكتساب الخيرين :

خير الدنيا .

وخير الآخرة .

ولن يكون ذلك بغير الحرص على تحقيق المقاصد الشرعيّة ، من الأعمال القلبيّة ، والبدنيّة .

روي أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مرّ عليه رجل ، فرأى الصحابة ــ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين من أوّلهم لآخرهم ــ من جلده ونشاطه ، فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله ! .

فقال رسول الله ﷺ : «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله** .

وإن كان خرج يسعى على أبويه شيخين كبيرين فهو في سبيل الله .

وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله .

وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان» .

وقد وجّه الاسلام أنظار المسلمين إلى هذا المعنى الحيويّ الشريف عندما همّ البعض أن يسرفوا في صور العبادة ، من : صلاة ، وصوم ، ونسك ، وزهادة ، فردّهم إلى الخيار الوسط ، وخير الأمور أوساطها ، فلا شطط ، ولا مغالاة ، ولا ركون ، ولا تخاذل ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**يأيها**

الذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين﴾[٣٩] .

وصوّر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ذلك للمسلمين في صور عمليّة ، متنوّعة ومتعدّدة ، منها :

أن رسول الله ﷺ قال : «**اني لأصوم فأفطر ، وأصلّي وأنام ، وآكل اللّحم ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**» .

وجاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ يسأله ، فقال له عليه الصلاة والسلام : «**أما في بيتك شيء ؟**» .

فقال الرجل : بلى ، لدينا كساء نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : «**ائتني بهما**» .

فأتاه الرجل بهما ، فأخذهما ﷺ من يده ، وقال : «**من يشتري هذين ؟**» .

فقال أحد الجالسين : أنا .. آخذهما بدرهم .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : «**من يزيد على درهم ؟**» ، مرّتين أو ثلاثا .

فقال رجل آخر : أنا آخذهما بدرهمين .

فأخذ الرسول ﷺ الدرهمين ، وأعطاهما إلى الأنصاريّ ، وقال له : «**اشتر بأحدهما طعاما فابعثه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فاتني به**» .

---

(٣٩) الآية (٨٧) من سورة المائدة .

ففعل الأنصاريّ ما أشار به رسول الله ﷺ ، وأتاه بالقدوم ، فشدّ فيه عليه الصلاة والسلام بيده الكريمة ، ثم قال له : «**اذهب فاحتطب به ، ولا أرينّك خمسة عشر يوما**» .

وعقب انتهاء المدّة جاء الأنصاريّ إلى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا ، وببعضها طعاما ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه : «**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة**» .

فهذا درس من الرسول ﷺ ، ليرى المسلمين كيف أن الاسلام يحثّ على العمل ، وكيف كان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يعالج المشكلات على أحدث النظم والطرق التربويّة والنفسيّة ، وأقربها إلى الدين وإلى الدنيا .

هذا هو الاسلام .

وهذه هي عظمة الاسلام .

وصدق المولى تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور**﴾[٤٠] .

إن الاسلام يربّي أبناءه تربية كريمة ، تقوم على الايجابيّة ، وعلى الاعتزاز بالكرامة ، وليس أقدر على ذلك من العمل الجاد ، والسعي الهادف ، الذي ترتبط به عزّة الفرد والجماعة ، ويتوقّف عليه اقتصاد الأمّة في جميع المجالات .

---

(٤٠) الآية (١٥) من سورة الملك .

يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسّر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم﴾[41] .

ومن هذا يتبيّن لنا أن العمل في المجال الاقتصاديّ ، والجهاد من أجل حماية البلاد مقدّمان على قيام الليل .

وللعمل في المجال الاقتصاديّ اتّجاهات واضحة بيّنة يرتكز عليها ، ويعمل على إثارتها وإبرازها ، لتكون أساس التعامل والتعاون بين الناس ، وذلك في حالة ما إذا توافرت الأسباب الآتية :

١ ــ حريّة اختيار العمل ، وذلك عن طريق تحقيق الكفاية والكفاءة .

٢ ــ تقرير مبدأ تكافؤ الفرص بين الناس في السعي المشروع .

٣ ــ السماح بالتسابق في إجادة العمل والانتاج .

٤ ــ إباحة العرض والطلب ، ما لم يؤدّ ذلك إلى الاضرار بمصلحة الجماعة ، وبالتالي مصلحة الأمّة .

٥ ــ الحثّ على الالتزام بمباديء العدل ، وذلك لنفي الغشّ والظلم .

٦ ــ الترغيب في الاحسان ، وذلك لتعديل الأوضاع الاجتماعيّة .

---

(٤١) الآية (٢٠) من سورة المزمّل .

[illegible]

۷ — [illegible]

۸ — [illegible]

بالكادحين عن أحوال اللّاهين والقاعدين المتحلّلين ، ويظهر ذلك في المستويات الدنيا والعليا .

ولقد جعل المولى تبارك وتعالى العمل كفّارة عن السيّئات ، ويدلّ على ذلك قول المولى تبارك وتعالى : **﴿إلّا من تاب وآمن وعمل صالحا ، فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات﴾**[٤٢] .

كما يدّل على ذلك ــ قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**إن من الذنوب ذنوبا لا يكفّرها إلّا الهمّ في طلب المعيشة**» ، فالعمل كفّارة للذنوب .

ومن آيات القرآن الكريم التي تحثّ على العمل ، قول المولى تبارك وتعالى : **﴿ولقد مكّنّاكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون﴾**[٤٣] ، أى : هيّأنا لكم فيها أسباب المعيشة .

وكان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يكره الكسل والتواكل ، ويحضّ على العمل ، حتّى لا يعرّض الانسان نفسه لذلّ السؤال ، فقد قال ﷺ : «**لأن يأخذ أحدكم حبلا فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكفّ الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطى أم منع**» .

وقال عليه الصلاة والسلام : «**ما أكل أحد طعاما قطّ خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده**» .

---

(٤٢) الآية (٧٠) من سورة الفرقان .

(٤٣) الآية (١٠) من سورة الأعراف .

وفي الخبر : «إن الله تعالى يحبّ المؤمن المحترف» .

والاسلام لا يجعل الأجر الكامل والمجزي إلّا لمن يحسن عمله ، يقول المولى تبارك وتعالى : **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾**[٤٤] .

ويفرّق المولى عزّ وجلّ بين المحسن والمهمل بقوله : **﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ، قليلا ما تذكرون﴾**[٤٥] .

وممّا لا شكّ فيه أنّه لا فرق في نظر الاسلام بين الرجل والمرأة في العمل ، وفي الأجر ، يقول تبارك وتعالى : **﴿فاستجاب لهم ربّهم أنّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض﴾**[٤٦] .

وقد أوضح الله جلّ شأنه في كتابه العزيز أن عائد العمل يكفل الحياة الكريمة في الدنيا ، وحسن الثواب في الآخرة ، للرجل والمرأة على السواء ، يقول سبحانه عزّ وجلّ : **﴿للرجال نصيب ممّا اكتسبوا ، وللنساء نصيب ممّا اكتسبن ، واسألوا الله من فضله﴾**[٤٧] .

ويقول جلّ شأنه : **﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ، ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾**[٤٨] .

---

(٤٤) الآية (٣٠) من سورة الكهف .
(٤٥) الآية (٥٨) من سورة غافر .
(٤٦) الآية (١٩٥) من سورة آل عمران .
(٤٧) الآية (٣٢) من سورة النساء .
(٤٨) الآية (٩٧) من سورة النحل .

وقد جعل المولى تبارك وتعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام خير قدوة لنا في حياتنا ، وقد كان الرسل عليهم الصلاة والسلام يعملون لئلّا يستكبر أحد عن العمل مهما كان نوعه مادام عملا شريفاً ، ولقد خاطب المولى تبارك وتعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام بقوله عزّ وجلّ : ﴿**يأيها الرسل : كلوا من الطيّبات واعملوا صالحا إنّي بما تعملون عليم**﴾[49] .

ولقد كان آدم عليه السلام يعمل زارعا ، وكان يحرث الأرض ، ويصنع بيده الآلات الزراعيّة ، وتعاونه في ذلك زوجته ، وكان بنّاء — أيضا — ، وهو أوّل من بني الكعبة ، وكانت زوجته تساعده في عمله من أجل المعيشة .

وكان إدريس عليه الصلاة خيّاطا ، وهو أوّل من خاط الملابس ولبسها ، بعد أن كانوا يلبسون الجلود .

وكان نوح عليه السلام نجّارا ، وراعيا ، وقد صنع الفلك بيده ، ورعي الغنم لقومه .

وكان يوسف عليه السلام مديرا للشؤون الماليّة في «مصر» ، فقد أراد الملك أن يستخلصه لنفسه بعد أن ظهرت براءته ، فطلب يوسف عليه السلام أن يمارس عملا يستحقّ عليه الأجر ، فقال للملك : ﴿**اجعلني على خزائن الأرض ، انّي حفيظ عليم**﴾[50] .

---

(٤٩) الآية (٥١) من سورة المؤمنون .

(٥٠) الآية (٥٥) من سورة يوسف .

وكان شعيب عليه السلام تاجرا .

وكان موسى عليه السلام راعيا ، وقد رعي الغنم لشيخ «مدين» عشر سنين ، أو ثماني سنين ، على أن يزوّجه ابنته .

وكان داود عليه السلام زرّادا ، يصنع الدروع ، يقول المولى تبارك وتعالى لداود عليه السلام آمرا له بإحسان العمل واتقانه : ﴿أن اعمل سابغات وقدّر في السرد﴾[٥١] ، أى : اصنع دروعا تامّة لاستعمالها في الحرب ، وأحسن صناعتها ، وأحكم وضع المسامير في حلقات الدروع ، فلا تصنع المسامير غليظة ، تضيقها الحلقات فتنقطع ولا تصنعها صغيرة فتسلس في الحلقة .

وكان زكريا عليه السلام نجّارا .

وكان عيسى عليه السلام نجّارا .

وكان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يرعى الغنم بـ «مكّة» قبل البعثة ، كما اشتغل بالتجارة — أيضا — .

ولم يكن يستكبر عن التعاون مع غيره في أيّ عمل فيه خير ، فقد حضر هدم الكعبة وإعادة بنائها من جديد ، وعمره خمسة وثلاثون سنة ، وكان ينقل الحجارة ، وقد شدّ بنفسه الحجر الأسود .

ولقد ضرب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أورع الأمثلة للتواضع والمشاركة في العمل ، وذلك عندما شرع في بناء مسجده في المكان الذي بركت فيه الناقة ، عقب وصوله إلى

---

(٥١) الآية (١١) من سورة سبأ .

«المدينة» مهاجرا ، فقد اشترك مع أصحابه ـــ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـــ في حمل الحجارة ، والطوب اللبن ـــ أى : الطوب الأخضر ـــ على كواهلهم ، وكانوا جميعا يردّدون : «اللهم لا خير إلّا خير الآخرة ، فانصر الأنصار والمهاجرة» .

وكان المصطفى صلوات الله سولامه عليه يقول وهم يبنون : «**هذا الحمال لا حمال خيبر ، هذا أبرّ ربّنا وأطهر**» .

وكان ﷺ إلى جانب ذلك يتعاون مع المسلمين في الحرب ، وكان أشجعهم ، وأشدّهم إقداما عند اشتداد القتال ، وكانوا يحتمون به من الأعداء إذا عظم الخوف .

وقد تحدّث الامام علي بن أبي طالب ـــ كرّم الله وجهه ـــ عن ذلك بقوله : «كنّا إذا احمّر البأس اتّقينا برسول الله ، فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه» .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يعلن عن نفسه في الحرب قائلا : «**أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب**» .

وكان الخلفاء الراشدون ـــ رضي الله عنهم أجمعين ـــ يمجّدون العمل ، متأثّرين بالروح الاسلاميّة التي طبّقها الرسول ﷺ على نفسه ، اقتداء بهدي الرسل السابقين عليهم السلام ، ممتثلا في ذلك قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتداه**﴾[٥٢] ، ومتّبعا تعاليم القرآن الكريم التي أنزلها الله عزّ وجلّ عليه .

---

(٥٢) الآية (٩٠) من سورة الأنعام .

وكان اقتداء الخلفاء الراشدين به تنفيذا لقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا**﴾[٥٣] .

ولقد كانوا هم بدورهم قدوة صالحة لمن جاء بعدهم ، فقد كان أبو بكر الصديق — رضي الله تعالى عنه — تاجرا منذ صباه ، ولم يستكبر عن التجارة بعد اسلامه ، وبعد أن تولّى الخلافة شوهد ذاهبا إلى السوق ومعه أثواب يتّجر بها ، فلقيه في الطريق عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح — رضي الله تعالى عنهما — ، فقالا له : «أين تريد يا خليفة رسول الله ؟» ، قال : «السوق» ، قالا : «تصنع ماذا وقد ولّيت أمر المسلمين ؟» ، قال : «فمن أين أطعم عيالي ؟» ، قالا : «انطلق حتّى نفرض لك شيئا» ، ففرضوا له مبلغا معيّنا من المال ، ليتفرغّ لأمور المسلمين ومسائل الدولة .

وكان عمر بن الخطاب — رضي الله تعالى عنه — تاجرا ، وكان يذهب إلى الأسواق من أجل كسب الرزق ، والاستغناء عن الناس ، فكان بذلك مثلا للمسلمين الذين أوجب عليهم الاسلام العمل ، حتّى لا يكونوا عبئا على المجتمع .

وكذلك كان عثمان بن عفّان — رضي الله تعالى عنه — تاجرا ، يبيع الثياب في جاهليّته وبعد إسلامه .

إن الاسلام حينما نظر إلى العمل ، نظر إليه نظرة إيمان تحمل على الاخلاص والاتقان والمراقبة .

---

(٥٣) الآية (٢١) من سورة الأحزاب .

نظرة برّ يتحقّق عن طريقها النفع والخير للمجتمع الانسانيّ ، فيمكّنه من كلّ الوسائل لهدايته ، والتطوّر به تطوّرا كاملا .

نظرة تقوى تدرأ عن صاحبها الشرور ومسالكها ، والضرر بكلّ أسبابه ، وتملأ قلب المؤمن الصادق خوفا وخشية .

ولا عجب في ذلك ..

إن الاسلام يوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، ويجمع بين العمل للدين والعمل للآخرة ، فلا يترك أحدهما ويأخذ بالآخر ، لأن ترك العمل للدين والآخرة ، والانغماس في لهو الدنيا ومتاعها يقطع الانسان عن انسانيّته ، وعن القيم الروحيّة السامية .

وأمّا ترك أعمال الدنيا ، والاستغراق في العبادات ، والأعمال الروحيّة ، وتضييع ما عداها ، ففيه أضعاف للجسم ، وقتل لقواه ، فالدين والدنيا متلازمان ، لأن الدين دين حياة ، ودين قوّة .

وقد رسم القرآن الكريم طريق الجمع بين الدين والدنيا ، وذلك في قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحبّ المفسدين**﴾[٥٤] .

فالواجب على كلّ فرد أن يعمل للدنيا وهو ذاكر للآخرة ،

---

(٥٤) الآية (٧٧) من سورة القصص .

ويصيب منهما جميعا ، وذلك كما قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : **«ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، حتّى يصيب منهما جميعا ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كلّا على الناس»** .

وروي أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قال : **«اعمل عمل امرىء يظنّ أن لن يموت أبدا ، واحذر حذر امرىء يخشى أن يموت غدا»** .

إن الاسلام يدفع دوما إلى العمل النافع في الدنيا والآخرة ، وإلى العمل على كلّ ما يرفع من شأن المسلمين ، ويعيد إليهم عزّتهم وكرامتهم ، التي كتبها المولى تبارك وتعالى لهم ، حيث يقول سبحانه عزّ وجلّ : **﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون﴾**(٥٥) .

إن الدين الاسلاميّ هو دين العبادة والعمل ، دين مسايرة الفطر وتهذيبها ، دين المعاملة والاصلاح ، دين الانتاج والاجتماع ، دين يأمر بالتقدّم والعمل في سبيل إقامة مدنيّة صالحة ، يتكافل فيها جميع المسلمين ، دين أساسه العزّة والكرامة ، دين المبادىء والقيم والمثل .

---

(٥٥) الآية (٨) من سورة المنافقون .

الفصل الثاني

حياة الأسرة

وأمّا في نطاق حياة الأسرة ، فإن تقدير الاسلام لها ، وعنايته بها ، تفوق كلّ تقدير ، وحرص كلّ الحرص على أن يوفّر للزوجين وسائل المحبّة والمودّة ، وهما جماع ما في الزواج من خير ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودّة ورحمة**﴾[1] .

وطريقه إلى تحقيق المودّة والرحمة ، أمران :

الأمر الأول : غرس الأخلاق الكريمة ، التي تفي بالحقوق في برّ ، وتحقّق المودّة في طهر .

الأمر الثاني : تجنّب كلّ ما من شأنه أن يكون سببا في إيجاد الفرقة والشحناء ، والتنازع والبغضاء .

ويقول المولى تبارك وتعالى في علاقة الزوجين : ﴿**هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ**﴾[2] ، أي : أن الزوجة من الزوج بمنزلة الشعار والدّثار ، وهو منها كذلك .

والمودّة بين سائر الأقارب تقوم على المودّة الواصلة ، وقد

---

(١) الآية (٢١) من سورة الروم .

(٢) الآية (١٨٧) من سورة البقرة .

أوجب الاسلام الصلة بين الأقارب ، فقال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**من أراد أن ينسأ له في أثره ، ويبارك له في رزقه ، فليصل رحمه**» .

والأسرة في الاسلام واسعة المؤدّى ، فهي تشمل الزوجين ، والآباء ، والأولاد ، والاخوة ، وتمتدّ حتى تشمل عموم النسب وحواشيه .

ولقد قرّر الاسلام على الرجل مسئوليّة الهيمنة والقوامة ، وجعله المكّلف بحقّ المرأة فيما يصل بها إلى الخير ، ويبتعد بها عن الشرّ ، فقال تبارك وتعالى : ﴿**وللرجال عليهنّ درجة**﴾[3] .

وقال جلّ شأنه : ﴿**الرجال قوّامون على النساء**﴾[4] .

وهذه الدرجة ليست درجة السلطان والقهر ، والأمر النافذ ، وإنّما هي درجة الرئاسة البيتيّة الناشئة عن عهد الزوجيّة ، وهي درجة تزيد من مسئولية الرجل ، فهي ميزة تكليف ، لا ميزة تشريف ، والغرض منها أن يسير البيت وفق نظام سائد ، لا وفق مآرب متدافعة ، ورغبات متنازعة ، فلابدّ من هذه الدرجة التي هي درجة إدارة ، حتّى تستقيم الشركة بينهما .

وترك زمام البيت في يد المرأة ، هو وضع للأمور في غير نصابها ، أو هو تحميل للعبء على الكاهل الضعيف .

والرجل أجدر من زوجته بحقّ رئاسة الأسرة ، لأن ما خلقه

---

(٣) الآية (٢٢٨) من سورة البقرة .

(٤) الآية (٣٤) من سورة النساء .

المولى تبارك وتعالى عليه ، من احتمال ، والصلابة ، والمقدرة الواسعة على الكسب ، والنفقة ، يجعله أولى بالترجيح والرئاسة .

ولذلك قال المولى تبارك وتعالى : . ﴿**الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم**﴾(٥) .

وفضل الرجل على المرأة الذي ترشد إليه الآية الكريمة ، هو ما جبل عليه الرجل من قوّة الاحتمال والقدرة على القيام بالمسئوليّات .

وقد أعطى الاسلام للمرأة حقوقها في جميع جوانب الحياة ، ومنحها الأهليّة الكاملة في التصرّفات الماليّة والقانونيّة باعتبارها مستقلّة الذّمة ، ولم يكلّفها بتحمّل التكاليف الماليّة للحياة الزوجيّة ، باعتبارها مكلّفة بإدارة البيت ، وتربية الأولاد ، والزوج هو الذي يتحمّل هذه التكاليف .

ولم يوصد الاسلام في يوم من الأيام في وجه المرأة بابا من أبواب العلم أو العمل ، وما هوّن من شأنها وقدرها في أيّ شأن من الشؤون ، فما دامت هي والرجل من نفس واحدة ، يحملان خصائصها الواحدة ، فمجال الحياة مفتوح أمامهما على حدّ سواء .

إن الأسرة لبنة من لبنات المجتمع ، الذي يتكوّن من مجموعة أسر يرتبط بعضها ببعض ، ومن الطبيعيّ أن البناء المكوّن من لبنات يأخذ ما لهذه اللّبنات من قوّة ، أو من

---

(٥) الآية (٣٤) من سورة النساء .

ضعف .

وكلّ أمّة انّما توزن بما بلغته الأسرة فيها من ترابط وتماسك ، وكلّ مجتمع انّما ينهض بقدر ما تزدهر فيه الأسرة وتستقرّ .

ومن هنا كانت العناية بتقوية الأسرة من أهمّ ما يجب على المصلحين رعايته ، وإذا كانت الأسرة لبنة من لبنات المجتمع فالزواج هو الأصل في الأسرة ، التي تتكوّن منه وبه تنمو ، وعلى هذا يأخذ الزواج نفس العناية التي تأخذها الأسرة ، وإن لم تكن هذه العناية على درجة كبيرة من القوّة والشدّة .

إنّنا لا نعرف دينا من الأديان التي نزلت من السماء ، ولا شرعة من الشرائع إلّا وكان للزواج فيها المكانة السامية ، والمنزلة العالية ، وكذلك ليست هناك أمّة من الأمم التي تعرف قيمة الحياة ، وتقدّرها حقّ قدرها إلّا وكان للزواج له نفس المكانة والمنزلة عندها .

فالأسرة هي الملجأ الوحيد ، والمأوى الطبيعيّ لكلّ من الرجل والمرأة ، والمستقرّ المأمون الطاهر لعلاقة الزوج بالزوجة ، وقد اعتبر الاسلام الزواج نصف الدين ، فأمر به ، وحثّ عليه .

والزواج لا ينبغي أن ينظر إليه على أنّه تحقيق لغريزة الانسان الجنسيّة فحسب ، بل هو رباط مقدّس قائم على المودّة ، والمحبّة ، والاخلاص ، والتآلف بين الطرفين .

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ، ليسكن إليها**﴾[٦] .

---

(٦) الآية (١٨٩) من سورة الأعراف .

فهذا السكن معناه : استقرار الشعور ، واطمئنان الانسان إلى أنّه يعيش مع إنسان يستريح إليه ، ويهدأ في كنفه عند احساسه بحالة من حالات القلق أو الاضطراب ، ويلتمس معه الشعور بالبشاشة عند الاحساس بالضيق .

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون**﴾[٧] .

والزواج يحقّق للانسان ما طبع عليه من حبّ للبقاء ، بيد أنّه لمّا كان بقاؤه بذاته شيء يمتنع حدوثه ، وهو يقرّ ويعترف بهذا من رؤيته ومشاهدته صنع المولى تبارك وتعالى في آبائه وأجداده ، فإنّه يرى ألّا سبيل إلى البقاء إلّا بالنسل المعروف نسبته إليه ، والذي هو في الواقع امتداد لبقاء الانسان في هذه الحياة ، واستمرار لذكراه ، ويوضّح هذا المعنى خير توضيح قول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيّبات**﴾[٨] .

فالمولى تبارك وتعالى يذكر نعمة الزواج وما يترتّب عليه من بنين وأحفاد ، مع رزق الطيّبات في نسق واحد ، وهذا يشعرنا بأن الحاجة إلى الزواج ، وما يكون منه من ثمرة طيّبة ليست بأقلّ من حاجتنا إلى طيّبات الرزق ، التي تحفظ علينا كياننا وحياتنا .

---

(٧) الآية (٢١) من سورة الروم .

(٨) الآية (٧٢) من سورة النحل .

ولمّا كانت الأسرة قوامها الرجل والمرأة ، فقد شرع الاسلام الزواج بينهما على أسس تكفل بقاء الحياة الزوجيّة وقوّتها ، وأحاط نظام الزواج بالضمانات التي تصونه من الاضمحلال ، وتجعله كبير الأثر في دعم الأسرة .

ففي مرحلة الخطبة والتي تعدّ من المراحل الهامّة في الزواج ، إذ سيترتّب عليه قيام أسرة ، وضع الاسلام أسسا قويّة ترتكز على أربعة أشياء ، هي :

١ ــ الاختيار .
٢ ــ التعرّف .
٣ ــ الرضا .
٤ ــ الكفاءة .

وسوف نتناول كلّ أساس من هذه الأسس بشيء من التفصيل :

الاختيار :

لقد أرشد الاسلام عند الزواج إلى ضرورة اختيار الزوجة ذات الدين والخلق ، لأن دينها وخلقها يمليان عليها أن تحفظ الرجل في نفسه وماله ، ولا يرى منها إلّا ما تطيب به نفسه ، ويطمئنّ له قلبه ، وما عدا ذلك من : مال ، أو جمال ، أو نسب فهو زائل ، فالمال غاد ورائح ، والجمال له أيام وأوقات معدودة ، والنسب لا فخر فيه ، وإنّما التفاخر لا يكون إلّا بالعمل الصالح ، وقيمة كلّ إنسان بما يحسنه لا بما ينتسب إليه .

ولذلك يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**تنكح**

المرأة لأربع : لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

فالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه جعل للدين الاعتبار الأوّل في اختيار الزوجة ، ومثل هذه الزوجة ستكون بلا شكّ كريمة العشرة ، أمينة على كلّ ما يتعلّق بالزوج : عرضه ، وماله ، وولده .

ولذا عدّ رسول الله ﷺ الحصول على مثل هذه الزوجة كسبا طيّبا للزوج .

ويا حبّذا لو انضمّ إلى الدين المال والجمال في الزوجة .

وبحسن اختيار كلّ من الزوجين للآخر تستمرّ الحياة الزوجيّة ، وتكون مليئة بالسعادة والحبّ ، وتضمن للأولاد ثمرة هذا الزواج حسن التربية والرعاية ، لأن الجديد لا يكون قويّا في بيت مملوء بالبغضاء والشحناء ، وتسوده الخلافات ، ويسيطر على جوّه دوما سوء التفاهم .

بيد أن الكثير من الشباب في الآونة الأخيرة قد أصبح يحرص كلّ الحرص على الجمال فقط ، أو المال فقط ، بصرف النظر عن أيّة اعتبارات أخرى ، لدرجة أن حرصه هذا يعميه عن كلّ ما ينبغي له من خلال ، وعن ما يلزم من صفات .

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : **«لا تزوّجوا النساء لحسنهنّ ، فعسى حسنهنّ أن يرديهنّ»**[9] ،

---

(٩) أي يهلكهنّ .

ولا تزوّجوهنّ لأموالهنّ ، فعسى أموالهنّ أن تطغيهنّ ، ولكن تزوّجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل» .

وروي ــ أيضا ــ عن رسول الله ﷺ أنه قال : **«من تزوّج امرأة لعزّها لم يزده الله إلّا ذلّا ، ومن تزوّجها لمالها لم يزده الله إلا فقرا ، ومن تزوّجها لحسبها لم يزده الله إلّا دناءة ، ومن تزوّج امرأة لم يرد بها إلّا أن يغضّ بصره ، ويحصن فرجه ، أو يصل رحمه ، بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه»** .

ولا شكّ في أن سوء الخلق يقضي على كلّ خير ، ويبعث على الريبة في كلّ مظهر ، وعندئذ لا ينفع مال ، ولا جمال ، في إنشاء الرابطة الزوجيّة المقدّسة .

وليس المراد المقارنة بين الدين وغيره من المال ، أو الجمال ، أو التنفير منهما ، بل المقصود أن يكون هدف الانسان أوّلا الدين .

وهذا لا يتعارض مع المال ، أو الجمال ، أو الحسب ، ولكنّ شيئا من ذلك لا يصحّ أن يكون مقصود الانسان من الزواج ، مجردًا عن الدين ، وعدّه أصلا في التقدير .

وليس المطلوب نظر الرجل فقط إلى ذات الدين ، بل نظر المرأة ــ أيضا ــ ، فلا تخدع بما ترى من ألوان الزهو والزينة ، فالناس معادن ، والمعدن الأصيل خير خير من المعدن الزائف .

مرّ رجل على رسول الله ﷺ ، فقال لأصحابه ــ رضوان

الله تعالى عليهم أجمعين ــ : «**ما تقولون في هذا ؟** » .

قالوا : حرىّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفّع ، وإن قال أن يستمع إليه .

فسكت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، ثمّ مرّ به رجل من فقراء المسلمين ، فقال لهم : «**ما تقولون في هذا ؟**» .

قالوا : حريّ إن خطب ألّا ينكح ، وإن شفع ألّا يشفّع ، وإن قال ألّا يستمع إليه .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : «**إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوّجوه ، ألّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**» .

إن الحياة الزوجيّة حياة ممتدّة ، وهذه الحياة تتطّلب من الصفات الانسانيّة أوّلا وقبل أيّ شيء التحمّل ، والصبر ، والقناعة ، والرضا ، فالشيء نرغب فيه إذا امتنع علينا ، ونزهد فيه إذا وصل إلينا واستدام معنا .

والزواج حياة رتيبة تنشد صفات النفس المستقرّة ، حتّى يتوافر للبيت نعمته من الأمانة ، والصيانة ، والرضا ، والقناعة ، مع الصبر والتحمّل ، وهذه الحياة صلتها بالدين أبرّ صلة ، وأكرم رباط .

ولذلك رغّب الاسلام في صاحب الدين ، وصاحبة الدين ، ليضمن سلامة المعاشرة ، وصفاء المودّة .

إن الاسلام لا يكره الغنى ، ولا ينفّر من الجمال ، ولكنّه يدعو إلى جعل الدين ، والصلاح ، والأخلاق ، الأساس في

الاختيار ، فإذا ما توفّر الدين فلنا أن نطلب بعد ذلك ما شئنا من صفات الكمال .

التعـــرّف :

وأرشد الاسلام إلى ضرورة تعرّف الفتى على الفتاة ، التي ستكون زوجته قبل الاقدام على الزواج ، فأباح له أن يرى وجهها وكفّيها ، ويتحدّث إليها في حدود الأسرة ، ليعرف كلّ منهما ما لصاحبه من المّميزات الجسمانيّة والفكريّة ، وذلك من أجل أن يقوم الزواج على أسس سليمة وقويّة .

ومن هذا التعرّف تنشأ رغبة كلّ منهما في الآخر ، ويكون لكلّ منهما فرصة ابداء الرأى على نظر سليم .

ولابدّ لنا في هذا المقام من أن نعرض وبسرعة لاتّجاهين ، يعتبر كلّ منهما ذا شأن وأهمّية :

الاتّجاه الأوّل :

يرى الكثير من الشرقيّين ، وعلى وجه الخصوص من يتّخذون من الريف والقرى سكنا لهم ، ومقرّا دائما لاقامتهم ، أن في رؤية الخاطب لمخطوبته أمرا لا يسمح به شرف العائلة ، وينافي ما تعارفوا عليه من تقاليد وعادات ، ولا يسمحون بالتعرّف إلّا عن طريق الوصف من جارة ، أو من قريبة .

الاتّجاه الثاني :

يرى آخرون ممّن يقلّدون الغربيّين في كلّ شيء ، أن سبيل

الاختلاط بكثرة هو السبيل الوحيد للتعرّف ، وأن تعرّف كلّ من الطرفين على الآخر ، ودراسة أخلاقه ، لا يتمّ إلّا عن طريق الاختلاط .

والواقع أن كلّا من الاتّجاهين بعيد كلّ البعد عن الطريق السّويّ ، ونظام الاسلام وتشريعه ، لأن زواج أيّ شخصين دون أن يسبق بينهما تعرّف أو رؤية ، قد يعرّض الحياة الزوجيّة للانهيار .

وإذا كان في الاتّجاه الأوّل من التزمّت ما يقضي على الأسرة ، وهي في أوّل أمرها ، ومبدأ تكوينها ، فإن في الاتّجاه الثاني الانطلاق نحو الفساد والانحلال ، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : **«لا يخلونّ رجل بإمرأة إلّا كان الشيطان ثالثهما»** .

ولقد جاء الاسلام وسطا بين هذين الاتّجاهين ، فهو يبيح الرؤية والتحدّث ، ولا يرى بأسا في أن يجتمعا سويّا ، ومعهما بعض الأهل والأقارب ، حتّى لا يكون هناك مجال للشيطان في أن يسيطر على أفكارهما ومشاعرهما .

وقد ورد أن المغيرة بن شعبة ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ خطب امرأة ، فقال له المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : **«هل نظرت إليها ؟»** .

قال : «لا» .

فقال ﷺ : **«انظر إليها ، فإنّه أحرى أن يؤدم بينكما»** ، أى : أن يحدث بينكما الوئام ، والوفاق ، والمحبّة .

والخطاب هنا وإن كان موجّها للمغيرة بن شعبة ـــ رضي الله

تعالى عنه ــ إلّا أن العلّة المشتركة تجعل للمرأة الحقّ في أن ترى خطيبها ، حتّى تحدّد هي الأخرى رأيا يكون نابعا عن إرادتها ورغبتها ، وبذلك نضمن حياة مستقرّة لكلّ من الطرفين فيما يكون من بعد ، وتنشأ الأسرة على أساس قوّي وسليم .

الرضـــا :

وأرشد الاسلام إلى ضرورة تمام الرضا من جميع الأطراف العنيّة بشأن كلّ من الفتى والفتاة ، لا منهما فحسب ، فرضا الفتاة شرط ، لأنّها هي التي ستعاشر زوجها ، فإذا لم تكن راضية عن هذا الزواج فستصبح الحياة بينهما جحيما لا يطاق .

وقد روي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قال : «**لا تنكح الأيّم حتّى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتّى تستأذن**» .

قالوا : يا رسول الله ، وكيف إذنها ؟ .

فقال عليه الصلاة والسلام : «**أن تسكت**» .

ولا يجوز للأبّ أن يكره ابنته على الزواج فيمن لا رغبة لها فيه ، فيجب أن تكون المرأة مختارة لزوجها ، وغير مكرهة على قبوله ، وليس لأبيها ، ولا لولّي أمرها ، ولا لأيّ إنسان كائنا من كان أن يستأثر دونها بهذا الاختيار ، فلو زوّج الأب ابنته الصغيرة لكان من حقّها يوم أن تبلغ سنّ الرشد أن تجيز هذا الزواج أو لا تجيزه ، مادام العقد قد عقد ولا رأى لها فيه .

وعلى هذا فزواج القاصر لا نفاذ له حتّى تبلغ سنّ رشدها ، وتصارح برأيها فيمن تريده وترضاه ، وهذا حقّ من حقوقها .

ذهبت خنساء بنت خزام إلى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه تقول له : «إن أبي زوّجني من ابن أخيه ، وأنا لذلك كارهة» .

فقال لها عليه الصلاة والسلام : **«أجيزي ما صنع أبوك»** .

فقالت : «ما لي رغبة فيما صنع أبي» .

فقال لها ﷺ : **«اذهبي فلا زواج له وتزوّجي من شئت»** .

فقالت : «أجزت ما صنع أبي ، ولكنّي أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من أمور بناتهم بشيء» .

ولم ينكر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه على خنساء بنت خزام قولها الذي قالته .

وليس أدلّ على أن المرأة لها الحقّ كلّ الحقّ في اختيار الزوج عن رضا وطواعية ، وأنّه ليس من حقّ الزوج أن يستبقيها زوجة له على غير إرادة ولا هوى ، من أن رسول الله ﷺ قد قدمت إليه أسماء بنت النعمان ، لتكون زوجة له ، فلمّا نزلت بـ «المدينة» لم ترضها ، فسألت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يردّها إلى أهلها ففعل .

وكذلك لابدّ من رضا الأب والأم عن الزواج ، فلا يجوز لأيّ فتاة أن تتزوج بغير رضا من أبويها ، فإذا تعنّت الأبوان فإمّا أن تقنعهما الفتاة بصلاحيّة الفتي أو بعدم صلاحيته ، أمّا التعنّت في حدّ ذاته فليس من الاسلام في شيء .

وكذلك من الأفضل رضا أهل الزوج عن هذا الزواج ، لأن الزواج ليس مجرّد اقتران فتى بفتاة ، بل هو مصاهرة واختلاط

بين عائلتين ، فالأحسن رضا العائلتين ، حتّى تسير سفينة الزواج في اطمئنان وهدوء ، لا يعكّر أمنها موج ؛ ولا تيّارات ، ولا اضطرابات .

وبهذا التشريع الاسلاميّ الحكيم تحفظ الشريعة للأب سلطته الأبوّية ، وتصون للفتاة أدبها ، مع تمكينها من الاعراب عن رغبتها في حريّة ، وعلى هذا فلا نرى من الأب استبداد في استغلاله لسلطته الأبويّة ، ولا خروجا من الفتاة عن سلطان أبيها .

الكفـــاءة :

ولم تقف الشريعة الاسلاميّة الغرّاء عند هذه الأسس السابقة في بناء الأسرة ، من : الاختيار ، والتعرّف ، بل وضعت أساسا رابعا ، فيه ضمان لقوّة الألفة ، وحسن الودّ والمعاشرة ، وذلك الأساس هو : الكفاءة .

والكفاءة هي : أن يكون الزوج كفئا لزوجته في المكانة الاجتماعيّة ، من حيث : العلم ، والمال ، والحسب ، حرصا على كرامة الزوجة ، وإعلاء لشأنها ، وحدّا من حريّة الزواج الذي لا تؤمن عواقبه .

كذلك يجب أن تكون الزوجة كفئا للزوج ، وهذه الكفاءة يعتزّ بها الناس في حياتهم الاجتماعيّة ، فلا جدال في أن انحطاط أحد الطرفين عن الطرف الآخر يؤدّي إلى احتقار الطرف الأعلى للطرف الأدنى .

بيد أن الأمر الأشدّ خطرا في تهديد الحياة الزوجيّة هو

انحطاط مكانة الزوج عن مكانة الزوجة ، لأن هذا يجعلها تنظر إليه على الدوام بعين الاحتقار والازدراء ، فتأبى عليه ، ولا تخضع لرأيه ، ولا تنزل على مقتضى قوامته وسلطانه ، فتنهار الحياة الزوجيّة ، وتتقوّض أركانها .

وهذا التكافؤ أمر تقديريّ ، لكن فيه نوعا من الملاءمة التي يحرص عليها الاسلام ، ليوفّر بها أسباب المودّة والرحمة .

وفي دنيا الناس تتنوعّ قيم الناس الماديّة والمعنويّة ، وتتفاوت درجاتهم تبعا لذلك ، وكلّ إنسان له ثوبه الذي يلائمه ، وأمره الذي يستقيم معه ، ولذلك جعل الاسلام من أسباب تدخّل الوليّ في الزواج عدم تكافؤ الطرفين ، الذي قد يجرّ عارا ، أو وبالا على احدى الأسرتين ، أو كلتيهما .

نظرة الاسلام إلى المهر :

إن نظرة الاسلام إلى الزواج تختلف تمام الاختلاف عن نظرته إلى سائر العقود ، فالزواج علاقة وطيدة ، وصلة روحيّة تقوم على أساسها الأسرة ، التي تعتبر الخليّة الأولى في المجتمع ، ولكي تكون الحياة الزوجيّة حياة مثاليّة ، لابدّ فيها من التعاون والتآلف ، بعيدا عن الأغراض الماديّة .

ونظرا لأن الزواج علاقة روحيّة نرى الشريعة الاسلاميّة الغرّاء لم تشترط ذكر المهر في عقده ، مثلما اشترطت ذلك — أى : ذكر العوض — في سائر أنواع العقود ، وأيضا فالمال ليس جزءاً في مفهوم الزواج ، والمهر حكم العقد ، وليس النّصّ على الحكم شرطا لصحّة العقد ، كما لا يشترط لصحّة البيع ذكر

له : «**ما هذا ؟**» .

فقال للرسول ﷺ : «اني تزوّجت امرأة على وزن نواة من ذهب» .

فقال له عليه الصلاة والسلام : «**بارك الله لك .. أولم ولو بشاة**» .

والنواة من الذهب كانت تساوي في ذلك الوقت خمسة دراهم ، أو ربع دينار .

ففي هذا الحديث ارشاد إلى الدعاء للعروس بالبركة ، وقد استجاب المولى تبارك وتعالى لدعاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لعبد الرحمن بن عوف ، حتّى قال : «لقد رأيت لو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب ذهبا أو فضّة» .

ومن هذه الأحاديث ــ أيضا ــ ، ما روي عن سهل ابن سعد ــ رضي الله عنه ــ أنّه قال : زوّج النبي ﷺ رجلا امرأة بخاتم من حديد .

وفي رواية : أنّه أمر من خطبها أن يلتمس ولو خاتما من حديد ، فلم يجده ، فزوّجها له على أن يعلّمها شيئا من كتاب المولى تبارك وتعالى .

وقد نظر الفقهاء إلى مثل هذه الأحاديث ، فجعلوا للمهر حدّا أدنى ، وبعضهم لم يجعل له حدّا أدنى ، فكلّ ما يسمّى مالا يصحّ أن يكون عندهم مهرا .

وعلى هذا فلا داعي للتعسّف في المهور ، وطلب الأموال الباهظة عند زواج البنات ، لأن هذا يشكّل مشكلة صعبة الحلّ أمام الشباب فتعجزهم ، وتجعلهم يصرفون النظر عن الزواج ،

الأمر الذي يؤدّي إلى أضرار اجتماعيّة كبيرة .

فماذا يضرّ الآباء لو تساهلوا قليلا ، وتعاونوا مع الشباب في إقامة حياة هادئة ومستقرّة لهم ولبناتهم ؟ ! .

حكمة الطلاق في الاسلام :

لم يقف الاسلام في حفظ الحياة الزوجيّة واسعادها عند حدّ الأمر بالاحسان ، وإبراز مقتضياته بين الزوجين ، وآثاره في الأسرة ، بل قدّر أن النفوس البشريّة عرضة للتقلّب ، وأن لمظاهر الحياة أو انحرافات القلوب نزغات ، تحاول أن تغيّر من عواطف الحبّ ، والمودّة ، والرحمة ، وتقطع ما قد يكون من صلات ، وترك في النفوس النفرة بدل الألفة ، الشقاق بدل الوفاق ، والفراق بعد التّلاق .

وهنا نجد الاسلام حريصا أشدّ الحرص على علاج مثل هذه الأمور ، قبل أن يتّسع نطاقها ، ويستفحل أمرها ، وتكون سببا في إنهاء الحياة الزوجيّة ، وتقويض أركان الأسرة .

ولقد حذّر القرآن الكريم من مسايرة هذه النزعة الشيطانيّة التي قد تطرأ على الحياة الزوجيّة ، وأرشد إلى محاربتها ، وعدم التأثّر بها ، وبيّن للرجل أن هذه الزوجة التي يزيّن له الشيطان أن قلبه يكرها ، ربمّا جعل المولى تبارك وتعالى له فيها خيرا كثيرا .

يقول المولى سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**﴾(١٠) .

(١٠) الآية (١٩) من سورة النساء .

وبيّن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه للرجل أنّه وإن كره في زوجته جانبا فهناك جوانب أخرى ترضيه ، وتهدّىء من نفسه .

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**لا يكره مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقا رضي منها آخرى**» .

فهذه كلّها نصائح يجب أن يتذكّرها المسلم حينما يتعكّر الجوّ بينه وبين زوجته ، حتّى تهدأ ثورته ، وتمرّ العاصفة بسلام .

ولم يقف القرآن الكريم في علاج نزغات الكراهة بين الزوجين عند هذا الحدّ الذي وجّه إليه أنظار الأزواج ، بل قدّر ــ أيضا ــ أن تمتدّ هذه النزغات إلى قلب المرأة ، فتحملها على النشوز ، والخروج على حقوق الزوجيّة ، والترفّع عن مركز الرئاسة البيتيّة ، فأرشد القرآن الكريم الرجل أن يعالج الأمر بنفسه من غير تدخّل أيّ إنسان آخر ، حفاظا على الأسرار العائليّة ، وحددّ له ثلاث مراحل ، لا ينتقل من واحدة منها إلى الأخرى إلّا إذا لم تجد الأولى .

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**واللّاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**﴾[١١] .

فالتي يكفيها الوعظ بالقول لا يجوز له أن يتّخذ سواه ، فإن لم يجد الوعظ انتقل إلى الهجر ، وما أقسى هذا العلاج على

---

(١١) الآية (٣٤) من سورة النساء .

المرأة الحرّة ، فإن لم يجد هذا ولا ذاك فليعالجها بقليل من الايذاء البدنيّ ، وقد جعله القرآن الكريم آخر الوسائل الاصلاحيّة التي يملكها الرجل ، وذلك كالدواء الأخير الذي لا يلجأ إليه إلّا عند الضرورة .

والواقع أن التأديب الماديّ للّاتي لا ينفع معهن الموعظة والهجر ، أمر تدعو إليه الفطرة ، ويقضي به نظام المجتمع .

وكما قدّر القرآن الكريم أن يكون مثار النشوز هو المرأة ، قدّر ـــ أيضا ـــ أن يكون مثار النشوز هو الرجل ، فأرشد القرآن الكريم المرأة أن تحاول علاج زوجها من هذا النشوز ، حفاظا على الحياة الزوجيّة ، فتحاول أن تعمل على كسب قلبه بما تقدر من وسائل الترضية ، وأن تتنازل في سبيل ذلك عمّا جرت عادة الزوجات بالتمسّك به من الرغبات التى قد تغضب الرجل ، ويجب عليها أن تتّقي تفاقم الشرّ بينهما .

وكم من كلمة طيّبة ..

أو إشراقة وجه ..

أو ابتسامة في وجه الزوج ، يكون لها أكبر الأثر في عودة المياه إلى مجاريها ، والنفوس إلى صفائها ، والقلوب إلى تلاقيها .

يقول المولى تبارك وتعالى مشيرا إلى هذا العلاج في كتابه الكريم : ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير**﴾[١٢] .

---

(١٢) الآية (١٢٨) من سورة النساء .

فالزوجان هما المكّلفان بتسوية شؤونهما ، وعلاج حالهما ، دون إفشاء لسرّهما ، مادام الخلاف لم يتجاوز مرحلة الخطر .

ولكن ، قدّر الاسلام أن الزوجين قد يعجزان عن إزاحة ما في نفوسهما من نفرة فهل سمح لهما الاسلام بالطلاق ؟ ..

كلّا ، لأن الطلاق أبغض الحلال إلى المولى تبارك وتعالى ، بل لجأ إلى علاج أقوى للحفاظ على الحياة الزوجيّة بينهما ، وأشار بضرورة اجتماع مجلس عائليّ ، يحاول أن يصلح ما بينهما ، ويزيل ما في نفوسهما من نفور .

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفّق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا**﴾[١٣] .

وقد ذكر القرآن الكريم أن يكون المجلس من الأهل ، لأنّهم أشدّ الناس حرصا على سعادة الأسرة ، بمقتضى صلات القرابة التي توحّد بين الجميع ، ولأنّهم أشدّ الناس حرصا على حفظ ما قد يكون في أسباب الشقاق من شؤون يجب أن تكتم وتخفى ، حتّى لا تشيع بين الناس ، وهذه حكمة عالية في التشريع الاسلاميّ .

هذه هي السبل التي رسمها الاسلام للاصلاح بين الزوجين ، وهي تبيّن لنا أنّه أحرص ما يكون على ابقاء الحياة الزوجيّة ، وعدم تعرّضها للانهيار .

والاسلام حينما أباح الطلاق جعله علاجا ــ أيضا ــ

---

(١٣) الآية (٣٥) من سورة النساء .

للابقاء على الحياة الزوجيّة ، وجعله على وضع يمكّن الزوجين من مراجعة أنفسهما ، وتدبّر عاقبة أمرهما ، وأمر ما قد يكون بينهما من أبناء .

فلم يجعل الاسلام الطلاق كلمة يلقيها الزوج على زوجته ، فتحرّم أحدهما على الآخر تحريما أبدّيا لا رجعة فيه ، وإنّما سلك به طريق العلاج وجعله على مراحل ثلاث ، حتّى يمتدّ أمد النظر والتبصرّ ، فشرعه مفرّقا مرّة بعد أخرى .

وهذا التشريع من أحكم التشريعات ، لأن ابقاء الزوجين مع وجود تنافر بينهما لم يستطع إزالته الزوج ولا الزوجة ، ولا الحكمان من أهلهما ، فيه مغالطة للطبيعة البشريّة ، بل يجب أن نفرّق بينهما مدّة من الزمن ، يراجع كلّ منهما فيها نفسه .

أمّا إذا ــ لا قدّر الله ــ لم تجد جميع المحاولات في الصلح ، وإرجاع الأمور إلى نصابها ، ذهب كلّ منهما لحاله ، وتفرّقا .

الفصل الثالث

المجتمع العام

إن الاسلام يعتبر المجتمع العام كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى ، لأن المجتمع الاسلاميّ مجتمع معنويّ ، تُبْنَى فيه العلاقات الاجتماعيّة على الروابط الأدبيّة ، من مودّة وتراحم ، لا على أساس من العلاقات الماديّة فقط .

ولا شكّ في أن العلاقات المعنويّة التي تقوم على المودّة والتراحم ، هي التي يقوم عليها بنيان الجامعات الانسانيّة ، وهي الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض .

وهذه هي القاعدة التي تقرّر مبدأ التكافل الاجتماعيّ ، ذلك التكافل الذي لا يقف عند حدود الأمور الماليّة ، أو الوسائل المعيشيّة فحسب ، بل يتعدّاهما إلى المعرفة بأسبابها المختلفة ، والبرّ بمعناه الواسع ، وذلك لصيانة الحقّ ، ورعاية الفضيلة ، وتوفير الطمأنينة ، أي : أنّه يأخذ بجوانب النفس الانسانيّة كلّها ، ويحيط بشؤون الانسان إحاطة شاملة ، ولا يخصّ الجانب الماديّ وحده .

إن التكافل الذي ينشده الاسلام للانسان لا يخصّ جانبا من جوانب الحياة دون جانب ، بل يعمّ جميع النشاط البشريّ في مجالاته المختلفة ، وضروراته المتنوّعة ، فيجعل من الجنس البشريّ وحدة متشابكة مؤتلفة كطبيعة الجسد الواحد ، الذي

يتأثّر بماديّات الحياة ومعنويّاتها ، مستهدفا المثاليّة في العدالة .

إن التكافل الذي أقامه الاسلام على أساس المعرفة لله تبارك وتعالى ، والتقرّب إليه ، لا يمكن أن يقوم معه في المجتمع الانسانيّ فئة ظالمة ، وفئة مظلومة ، أو فئة مُسْتَغِلَّة ، وفئة مُسْتَغَلَّة ، بل يربط الجميع رباط الحبّ ، والألفة المؤمنة ، وتظهر فيه المسئوليّة الفرديّة متوازنة مع المسئوليّة الجماعيّة .

إن كلّ فرد في الاسلام يشعر أنّه مسئول عن راحة الجماعة وسعادتها ، مسئول عن حمل أمانة المولى تبارك وتعالى الغالية .

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**كلّكم راع وكلّكم مسئول عن رعيّته : الامام راع ومسئول عن رعيّته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيّته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيّتها ، والخادم راع في مال سيّده ومسئول عن رعيّته ، والولد راع في مال أبيه ومسئول عن رعيّته ، وكلّكم راع ومسول عن رعيّته**» .

وهذه المسئوليّة ليست أمام الجماعة فحسب ، بل هي تمتدّ فتحيط بالانسان في ظاهره وباطنه ، وفي سرّه وعلنه ، لأنّها أمام المولى العليم بكلّ شيء عزّ وجلّ ، الذي لا تخفى عليه خافية .

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ، ولا خمسة إلّا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا ، ثمّ ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكلّ شيء عليم**﴾[1] .

(١) الآية (٧) من سورة المجادلة .

ويقول سبحانه جلّ شأنه : ﴿**وقل : اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون**﴾[٢] .

وهذه المسئوليّة إذا استقرّ أمرها في النفس ، جردّت الأمور لمنطق العدل ، ولا يصلح أمر الناس إلّا بقيامها في تقدير النفس ، ورسوخها في أعماق الضمير ، إذ أن التحايل على العباد أمر ممكن ، والافلات من عقاب القانون أمر مستطاع ، ولكن النفس التي توقن أنّها بين يدي خالق لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، لا تختفي باثم ، ولا تستتر بمعصية ، ويكون ميزان التقدير في ذلك الوقت هو : التنزّه عن كلّ ما يغضب المولى تبارك وتعالى ولو أرضى المخلوق ، والترفّع عن كلّ ما يدين بين يدي الحقّ جلّ شأنه وإن جرّ مغنما ، أو نفعا عاجلا .

وهذه المسئوليّة هي التي يعمل الاسلام دائما على قيامها بالنفس ، إذ بها وحدها يستقيم سلوك الانسان في الحياة .

إن التكافل الاجتماعيّ في الاسلام يحيط بجميع الشؤون الانسانيّة ، سواء منها ما يتعلّق بالأمور الماديّة أو المعنويّة ، يحقّق للانسانيّة برّ الحياة ونعيمها ، ويحوطها بسياج متين ، يصون أخلاقها ، ويحمي ضروراتها ، ويوفّر لها حريّة الأمن ، وكرامة المعرفة .

والتكافل في الاسلام نتيجة باعث فطريّ ، يقوم على إحراز

---

(٢) الآية (١٠٥) من سورة التوبة .

الخير للنفس ، عن طريق عمل البرّ ، وليس نتيجة ضغط من الظروف الاقتصاديّة ، أو عامل من عوامل الترضية ، لا يقتصر على جانب من الخير دون جانب ، كما لا يختصّ بفئة دون فئة ، لأنّ مبعثه الشعور الكامل بأن الخير للانسان فيما يقدّمه ممّا يملكه .

يروى أن رسول الله ﷺ جاء إلى زوجته السيّدة عائشة — رضي الله تعالى عنها — يسألها طعاما ، فذكرت له ما تبقّى من شاة ذبحت ، وأمسكت بشيء قليل وقالت : كلّها ذهبت إلّا هذه ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : «**كلّها بقيت إلّا هذه**» .

صدقت يا سيّدي يا رسول الله ، «كلّها بقيت» ، وصدق المولى تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿**والباقيات الصالحات خير**﴾[٣] .

و : ﴿**يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا**﴾[٤] .

والتكافل الاجتماعي في الاسلام يقوم على دعائم ثابتة ، ورعاية انسان من جميع نواحيه ، وهو يستمدّ ذخره من معين لا ينضب ، ويأخذ طابعه من طبيعة الايمان بالمولى تبارك وتعالى ، والثقة فيه .

لقد عمل الاسلام على إقامة المجتمع الفاضل في كلّ الأرض ، لأنّه دين عامّ يخاطب الانسانيّة كلّها ، ومن أجل ذلك

---

(٣) الآية (٤٦) من سورة الكهف .
(٤) الآية (٣٠) من سورة آل عمران .

حارب الأوهام ، والأخيلة الفاسدة ، التي تصنع حجرا وتتخيّل أنّه إله يعبد ، أو حلّ فيه إله يعبد ، ودعا إلى الوحدة الانسانيّة العامّة ، لإيجاد مجتمع فاضل .

وحتّى يتحقّق ذلك لابدّ من تربية النفوس ، وتربية الجماعات ، ليتكوّن من ذلك الاجتماع الانسانيّ مجتمع متآلف متحابّ ، غير متنافر ، ولا متباغض .

وإن التربية الروحيّة تقوم على تربية الضمير ، ليكون صاحبه مؤتلفا مع الجماعة ، ملتقيا معها ، ويؤثرها على نفسه ولو كانت به خصاصة ، ويحبّ الناس لله عزّ وجلّ ، ويكون مستجيبا لقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ الشيء لا يحبّه إلّا لله**» .

ويكون ممّن قال فيهم الرسول ﷺ : «**إن لله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله تعالى يوم القيامة**» .

قيل : من يا رسول الله ؟ .

قال : «**قوم تحابّوا بروح من الله على غير أرحام تربطهم ، ولا أموال يتعاطونهم ، والله انّهم لنور ، وإنّهم لعلى نور ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ولا يخافون إذا خاف الناس**» .

وفي هذا يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتّقون . هم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم**﴾[٥] .

---

(٥) الآيات (٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤) من سورة يونس .

تبارك وتعالى الناس عليها .

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**فطرت الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله**﴾[٦] .

والتعاون في الاسلام ركن من أركان الهداية الاجتماعيّة ، نادى به ، ودعا إليه ، ورسم لنجاح دعوته طريقين أساسيّين ، هما :

الطريق الأوّل :

اصلاح الفرد وتنشئته الصالحة ، لأن الفرد هو اللّبنة الأولى التي يتكوّن منها المجتمع ويرتكز عليها ، ومتى صلح الفرد صلح المجتمع بلا جدال .

وتنشئة الفرد الصالحة هي تربيته على مكارم الأخلاق ، التي عني بها الاسلام عناية لا توجد من ناحية الشمول والتفصيل في أيّ دين من الأديان التي جاءت قبله .

ومكارم الأخلاق معراج يرقى عليه الفرد إلى المجد والشرف ، حيث يغرس بجليل أعماله وأفعاله ، وحميد مقاله ، المحبّة والألفة بينه وبين الناس .

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لأبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ : «**يا أبا هريرة : عليك بحسن الخلق**» .

فقال أبو هريرة : «ما حسن الخلق يا رسول الله ؟» .

فقال عليه الصلاة والسلام : «**تصل من قطعك ، وتعفو**

---

(٦) الآية (٣٠) من سورة الروم .

عمّن ظلمك ، وتعطي من حرمك» .

فبهذا الحديث النبويّ الشريف وضع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أكبر دعائم الألفة والمحبّة بين الناس ، وربطهم برباط محكم لا تنفصم عراه ، لأن الألفة والمحبّة قوّة عارمة تفّتت صخور الخلاف ، بل تجرفها وتقذف بها إلى أعماق النسيان ، فتتضافر القلوب ، وتتساند وتتضامّ على ما فيه خير الجماعة ، وحسب الفرد رفعة عند ربّه عزّ وجلّ ومجتمعه أن يكون كريم الخلق ، بوصله من قذعه ، وعفوه عمّن ظلمه ، واعطائه منّ حرمه .

أمّا المفرّق بين القلوب ، وموقع العدواة والبغضاء بين الجماعة ، فحسبه أن يسمع قول الرسول ﷺ : **«إن أحبّكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم المشّاءون بالنميمة ، المفرّقون بين الاخوان»** ، وليختر بعد ذلك احدى المنزلتين .

الطريق الثاني :

اصلاح المجتمع ، والمجتمع عبارة عن سلسلة ذات حلقات تشمل العالم بأجمعه ، فيوجب الاسلام على الأسرة أن تعيش متساندة متعاونة ، بأن يؤدّي الزوج عمله خارج البيت بما يقيم حياتها ، وتؤدّي الزوجة ما يفرضه البيت من رعاية شؤونه ، ورعاية أولادها ، ويؤدّي الأولاد ما تفرضه الأبوّة والأمومة من طاعة .

وقد تضم الأسرة الواحدة غير الأبوين وأولادهما ، من :

أجداد ، وأعمام ، وأولاد أعمام ، إلى آخر القرابات المعروفة ، فيكون تعاونها بإنفاق القريب القادر على القريب المحتاج ، ضمانا للتكافل العائلي في الأسرة .

وبقيام كلّ واحد بما يجب عليه تهنأ الأسرة وتسعد ، وبهنائها وسعادتها يهنأ المجتمع ويسعد ، لأن الأسرة هي اللّبنة الأولى في بنائه ، بقوى بقوّتها ، ويشتدّ بشدّتها ، ويضعف عندما تضعف .

أمّا باقي الحلقات في السلسلة ، وهو المجتمع العام ، فقد عني الاسلام بإقامته على قواعد متينة ، من : التعاطف ، والتراحم ، والتوادد ، وعلى مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات ، والتنسيق بين الجهود في سبيل الصالح العامّ والخاصّ ، ولهذا فإنّنا لو أمعنّا النظر قليلا في قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**إنما المؤمنون اخوة**﴾[٧] ، لوجدنا أن الاسلام جعل المنتسبين إلى أصل واحد وهو «الايمان» كأبناء الأب الواحد ، والمنتسبون إلى أصل واحد يكونون أقوى تضامنا ، وأشدّ تساندا .

وعلى ضوء هذا الأسلوب الدقيق الرقيق الذي سطع نوره في قلوب المسلمين ، حارب الأنصار حبّ الذّات والأثرة ، فقد كان موقف المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه ـــ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـــ من المهاجرين ، بعد ما تركوا كلّ أموالهم ، وهاجروا من أرضهم وديارهم ، موقفا دقيقا يتطلّب الاخلاص والتضامن ، ويقضي بأن يسود التعاون

---

(٧) الآية (١٠) من سورة الحجرات .

وظلّ الحال على هذا الشكل إلى أن نزل قول المولى سبحانه وتعالى : ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾[8] ، فاقتصر التوارث على الأخوّة من النسب .

وقد أظهر الأنصار من التعاون ، والكرم ، والتسامح ، مع إخوانهم المهاجرين ما خفّف عنهم آلام الغربة ، وعوضّهم عن فراق الأهل والأحبّة .

ويحدّثنا التاريخ الاسلاميّ الصادق بأن عشرة من جرحى المسلمين في إحدى معاركهم الحربيّة ، مرّ عليهم أحد إخوانهم الذين لم يصابوا بماء ، ليرووا ظمأهم ، وكان يوم المعركة من الأيّام الشديدة الحرارة ، فرفضوا تناول الماء ، لا عن طريق الاضراب والامتناع عن الشرب ، بل عن طريق الايثار ، حيث آثر الأوّل الثاني على نفسه ، وقال : «لعلّه أشدّ ظمأ منّي» .

وفعل الثاني ما فعله الأوّل ، وهكذا فعل الثالث والرابع حتّى التاسع ، فذهب الساقي إلى العاشر فوجده قد توفّي ، فرجع مسرعا إلى من قبله فوجده قد توفّي ، وعلى هذا الشكل كلّما رجع إلى واحد منهم يجده قد لحق بربّه عزّ وجلّ ، وفارقوا الحياة جميعا متأثّرين بجراحهم وعطشهم .

وجاء أن أنصاريّا وزوجته قد بالغا في إكرامهما لضيف المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، فآثراه بطعام أولادهما وطعامهما ، وكان من الزوجة أن أنامت الأطفال ، وأطفأت السراج ، وبات الرجل وزوجته وأطفالهما وهم جياع ، ثمّ غدا الرجل على الرسول ﷺ ، فقال له عليه الصلاة والسلام :

(٨) الآية (٧٥) من سورة الأنفال .

«لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة ، وأنزل فيهما : ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ .

فهذه الحادثة وسابقتها تدلّان على عمل التربية الروحيّة التي غرسها الاسلام في نفوس أتباعه ، وفيها الاشراق والنور للذين ينشدون السموّ الروحيّ لخير الجماعة والمجتمع ، وحسب الذين يتّخذون من الايثارا شعارا لنفوسهم الكبيرة ، الساعية لخدمة الاسنانيّة أن المولى تبارك وتعالى أثنى عليهم في كتابه الكريم .

كما يحدّثنا التاريخ الاسلاميّ عن أثر ذلك الأسلوب الرقيق الدقيق ممّا كان من جماعة المتعلّمين ، فقد علّموا إخوانهم ممّن كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة ، وأرشدوهم إلى ما أمر به المولى تبارك وتعالى من معروف ، وما نهى عنه من منكر : **﴿والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر﴾**(٩) .

ولقد أذابت هذه الأخوّة الفوارق بين أبناء الأصل الواحد ، فقد ارتفعت مكانة الموالي ، أمثال : زيد بن حارثة ، وبلال ابن رباح الحبشيّ ، وصهيب بن سنان الروميّ ، ونافع ، وعكرمة ـــ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـــ ، وصاروا أئمّة وأعلاما في الدين ، يهتدي الناس بهديهم ، وعلى نهجهم يسيرون .

وهذا هو شأن الاسلام دائما ، من يوم أن أرسل رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها ،

---

(٩) الآية (٧١) من سورة التوبة .

لا مكان فيها لفخر ، ولا تعالي من إنسان على آخر ، بل العمل الصالح هو مجال التفاخر والتفاضل بين الناس ، وأمّا فيما عدا ذلك فالكلّ سواسية كأسنان المشط .

وجاء في الحديث النبويّ الشريف ما يصوّر الأخوة وجمالها خير تصوير ، ومالها من حقّ لا يظلم ولا يهضم ، وذلك في قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يعيبه ، ولا يخذله ، ولا يتطاولا عليه في البنيان ، يستر عليه الريح إلّا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره إلّا أن يغرف له غرفة ، ولا يشتري لبنيه فاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها**» ، ثمّ قال عليه الصلاة والسلام : «**احفظوا ، ولا يحفظ منكم إلّا القليل**» .

والآية القرآنية الكريمة ، والحديث النبويّ الشريف ، يبعثان بغير ما شكّ على التعاطف ، والتراحم ، والتوادد .

وقد جاءت هذه الصفات البالغة في مدلولها ومرماها ، ذروة في الكمال وسنامه ، مصوّرة تصويرا رائعا في قول سيّد المرسلين ﷺ : «**مثل المؤمنين في تعاطفهم ، وتراحمهم ، وتوادّهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى**» .

فقد جعل نبيّ المسلمين صلوات الله وسلامه عليه مجتمع المؤمنين وحدة عضويّة تتعاون أجزاؤها وتتضامن في خدمة المجموع ، كما تتعاون أجزاء الجسم وتتضامن في تأدية وظائفها ، وذلك بقيام كلّ فرد في المجتمع بعمله على أكمل وجه ، وأحسنه ، وبقيامه بواجبه الانسانيّ ، فيكون في عون أخيه

بتيسير أمره ، وتفريج كربه ، وستر سوْته ، ومشاركته في أفراحه وأحزانه ، كما يشارك الجسد كلّه أحد أعضائه إذا أصابه ألم ، فيأرق لأرقه ، ولا يرتاح ويهدأ إلّا بعد أن يبرأ العضو ، ويذهب عنه ما به .

وممّا يدعّم معنى الأخوّة ويبقيها في النفوس ، قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» .

ولفته القلوب الحجريّة إلى سوء العاقبة في توجيهه الحكيم : «**دخلت امرأة النار في هرّة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**» .

وتبشيره القلوب الرحيمة في اخباره الرائع : أ«**بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش ، فوجدا بئرا ، فنزل فشرب فخرج ، فإذا بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بي .. فنزل البئر ، فملأ خفّه ثمّ أمسكه بفيه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له**» .

قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم أجرا .

قال : «**نعم ، في كلّ ذات كبد رطبة أجر**» .

فما أجمل هذا التصوير الذي يدّعم أواصر الأخوّة ، ويقوّي بناء المجتمع ، وما أجمله وهو يحثّ الانسان على الرحمة والرفق بأخيه الانسان .

وإذا كان الرفق بالحيوان قد بلغ به في عالم الانسان ما رأيناه في هذا الحديث النبويّ الشريف ، فكيف لا يكون

بنو الانسان متعاطفين ، متراحمين ، متحابّين ، وقد جمعتهم وحدة التراب ، ووحدة الخالق تبارك وتعالى ، الذي أوجدهم من تراب ؟ ! .

ومبادىء التعاون في الاسلام عالميّة ، فهو يدعو إلى التعارف بين شعوب العالم ، ليعرف بعضهم بعضا ، يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : **﴿يأيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل ، لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[10] .

بهذا النداء قرّر الاسلام أن يعيش مع العالم كلّه على مبدأ المساواة واحترام الحقوق ، وذلك بأن يعدل المسلمون مع من سالمهم وإن كان مخالفا لعقيدتهم ، وأن تكون المودّة والمعاملة الطيّبة هي صلتهم به ، يقول الحقّ جلّ وعلا : **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحبّ المقسطين﴾**[11] .

إن الاسلام لم يكن في يوم من الأيّام معاديا لدين من الأديان ، ولا لشريعة من الشرائع ، ولم يكره أحدا على الدخول فيه ، يقول المولى تبارك وتعالى : **﴿لا إكراه في الدين ، قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾**[12] .

---

(١٠) الآية (١٣) من سورة الحجرات .

(١١) الآية (٨) من سورة الممتحنة .

(١٢) الآية (٢٥٦) من سورة البقرة .

ويقول سبحانه جلّ شأنه : ﴿**ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتّى يكونوا مؤمنين**﴾[13] ، فأهل الذمّة والمستأمنون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين .

وهذه ولا شكّ سياسة رشيدة ، يجدر بأولي الألباب أن يقدّروها وينصفوها ، فهي تدعو إلى الترابط والتضامن ، والتعاطف والتراحم ، في حدود ما شرعه المولى تبارك وتعالى في دستوره الحكيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والتعاون في مجالاته : الثقافيّة ، والاجتماعيّة ، والزراعيّة ، والحربيّة ، والاقتصاديّة ، وبكافّة أنواعه جاء في دعوة الاسلام إليه ، في إيجاز ميسور ، وفي عزم المجدّ ، وحزم الصادق الأمين ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**وتعاونوا على البرّ والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**﴾[14] .

وقد أبهم القرآن الكريم لفظ «التعاون» ولم يوضّحه ، وذلك من بالغ حكمته ، لأن التعاون يتكّيف بالزمان والمكان والانسان .

وإيجاز القرآن الكريم في الدعوة إليه من معجزاته ، حيث ترك تفاصيل التعاون ونظمه للانسان والزمان ، لأنّ ما يصلح من النظم لبلد قد لا يصلح لبلد آخر ، والبرّ هو الخير والمعروف ، وقد ترك طريق البرّ للانسان والزمان ، بأن يضع النظم

---

(١٣) الآية (٩٩) من سورة يونس .

(١٤) الآية (٢) من سورة المائدة .

الصالحة ، ويخطّ الخطط الملائمة من اقتضاء واجتماع وما إليهما .

وقد مرّ بنا من وسائل البرّ الداعية إلى وجود التعاون المجمل في دعوة الاسلام إليه ، الكثير من مبادئه القويمة ، التي ينبني عليها المجتمع بناء قويّا متماسكا ، يشدّ بعضه بعضا ، بحيث لا يدع ثغره يتسرّب إليه منها ضعف ولا وهن .

إن الأديان السابقة على الاسلام أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، وأرشدت الانسان إلى أن حياته لن تتمّ سعادتها إلّا إذا أحبّ الانسان أخاه الانسان .

«أكرم أباك وأمّك ، كما أوصاك الربّ إلهك ، لكي تطول أيّامك ، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الربّ إلهك . لا تقتل ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا تشته بيت قريبك ، ولا حقله ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا كلّ ما لقريبك»[١٥] .

و : «قال له يسوع : تحبّ الربّ إلهك من كلّ قلبك ، ومن كلّ نفسك ، ومن كلّ فكرك . هذه هي الوصيّة الأولى والعظمى ، والثانية مثلها ، تحبّ قريبك كنفسك ، بهاتين الوصيّتين يتعلّق الناموس كلّه والأنبياء»[١٦] .

و : «لا تكونوا مديونين لأحد بشيء إلّا بأن يحبّ بعضكم بعضا ، لأن من أحبّ غيره فقد أكمل الناموس . لأن لا تزن ،

---

(١٥) سفر التثنية /الاصحاح الخامس — من ١٦ — ٢٢ — .

(١٦) انجيل متى /الاصحاح ٢٢ — من ٣٧ إلى ٤٠ — .

لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تشته وإن كانت وصيّة أخرى هي مجموعة في هذه الكلمة : أن تحبّ قريبك كنفسك .. المحبّة لا تصنع شرّا للقريب ، فالمحبّة هي تكميل للناموس»[١٧] .

والقرآن الكريم تناول كلّ ما جاء في الديانات السابقة قبل أن تتناولها يد الانسان بالتحريف والتبديل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وايّاهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحق ، ذلكم وصّاكم به ، لعلّكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتّى يبلغ أشدّه ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلّف نفسا إلّا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصكّم به ، لعلّكم تذكرون**﴾[١٨] .

ومن هنا ندرك أن الأديان كلّها قد دعت إلى التمسّك بالفضيلة ، التي هي أساس المعاملات ، وقرّر الاسلام ما جاء في الأديان السابقة الصحيحة ، مرشدا إلى سعادة الأفراد والجماعات ، من وراء التمسّك بالفضيلة ، والاقلاع عن الرذيلة .

---

(١٧) رسالة بولس إلى أهل روميّة /الاصحاح ١٣ ــ من ٨ إلى ١٠ ــ .
(١٨) الآيتان (١٥١ ، ١٥٢) من سورة الأنعام .

والتعاون على الخير ، أو دفع الشرّ ، من ناحية أنّه تضافر القوى ، وتضامن الجهود على ذلك ، ليس خاصّة من خواصّ الانسان ، بل يشاركه في هذه الناحية الكثير من الحيوان الأعجم ، كالوعول ، والذئاب ، والفيلة ، والقرود ، والحشرات ، والطيور المتوحّشة ، والمخلوقات الصغيرة ، فلجماعات النمل والنحل في تعاونها بما وصل إلينا عنها ، ما لا يغيب عن الأذهان ، وما فيه من عظة وعبرة .

وقد شوهد في الصحراء المخيفة ، والقفار الشاسعة ، أن الذئاب ، والوعول ، والوحوش ، والطيور ، لا يمكنها أن تجتازها إلّا في جماعات متعاونة متضامنة ، لتنجو من المخاطر والمخاوف التي قد تعترض طريقها .

وإذا كان التعاون غريزة حيويّة ، وقد شارك فيه الانسان الحيوان الأعجم ، وبدا فيه تضافر القوى وتضامن الجهود ، في سبيل جلب النفع ، أو دفع السوء وليس من خواصّ الانسان ، وليس يجهل أحد ما للتعاون من أثر قيّم في إعاد الأفراد والجماعات ، أفلا يجدر بالناس أن يوفّروا لحياتهم الهناءة والرفاهية بتعاونهم وتساندهم ز وأن يحترموا وجودهم في الحياة بما حباهم المولى تبارك وتعالى من بصر وعقل ، حتّى لا يكونوا أقلّ شأنا من الحيوان الأعجم ، الذي يسير في حياته آمنا ، على ضوء تعاونه وتضامنه .

إن التعاون مبعثه المحبّة والألفة ، والمحبّة والألفة هما طريق بناء الشعوب وبناء المجتمعات ، وبناء الشعوب والمجتمعات لا يقوى ولا يتماسك ، ولا يشتدّ في بنائه وتماسكه إلّا باحترام

حقوق الانسان ، والمساواة ، وإنكار الذات ، والأخذ بيد الضعفاء ، والمعوزين ، وأن الناس جميعا في الانسانيّة سواء ، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**يأيها الناس : إن ربّكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلّكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربيّ على عجميّ ، ولا لأبيض على أسود إلّا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**» .

ثانيا : التكافل الأخلاقي

التكافل الأخلاقي هو : مسئوليّة المجتمع عن حفظ الأخلاق وصيانتها ، وصيانة قيمها ، ومقاومته للعصاة والمخرّبين ، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان**» .

إن الأخلاق أهمّ عنصر في تكوين الفرد المثاليّ ، والأسرة المسلمة ، والمجتمع الراقي ، والدولة الناهضة ، التي تستطيع بما لها من قيم ومبادىء أخلاقيّة أن تكون نسيجا وحدها ، وأن تصل إلى أقصى ما تطلب من رقيّ وازدهار ، ومن أجل ذلك حرص الاسلام أشدّ الحرص على الأخلاق ، لاعداد الأمّة التي تتحمّل الأمانة ، وتؤدّي رسالة المولى تبارك وتعالى في أرضه .

والأخلاق القويمة هي التي تعصم المجتمعات من الانحلال ، وتصون الحضارة والمدنيّة من الضياع ، وبدونها لا تنهض الأمم ، ولا تقوى الدول مهما بلغت من العلم ،

ولا يكون لها كيان ، لأن العلم والأخلاق دعامتان من الدعائم الأساسيّة التي لا تستغني عنهما المجتمعات ، ولا تستغني القوانين عن الضمائر الحيّة الواعية التي تساعد على تطبيقها .

وفي عظم قدر الأخلاق الفاضلة ، وعظيم ثوابها ، قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم والقائم**» .

وقال ﷺ «**ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق**» .

ولا شكّ في أن تربية النفوس على الفضائل بتنمية نوازع الخير فيها ، وتنحية دوافع الشر عنها ، هو بعض ما يفهم من قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**قد أفلح من تزكّى**﴾[19] .

وقوله سبحانه جلّ شأنه : ﴿**قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها**﴾[20] .

ولقد لوحظ في تسمية الانسان انسانا معنى الانس والألفة ، ولا تستقيم له هذه الحقيقة إذا كان سيّيء الخلق ، منحرف الغرائز ، والميول ، ومن ثمّ كان الدين كما يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**حسن الخلق**» .

روي أن رجلا جاء إلى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، فأقبل عليه بين يديه ، وقال : «يا رسول الله : ما الدين ؟» ، قال : «**حسن الخلق**» ، ثمّ أتى إليه من قبل يمينه ، فقال : «يارسول الله : ما الدين ؟» ، قال : «**حسن**

---

(١٩) الآية (١٤) من سورة الأعلى .

(٢٠) الآيتان (٩ ، ١٠) من سورة الشمس .

الخلق» ، ثمّ أتى إليه من ورائه ، فقال : «يارسول الله : ما الدين ؟» ، قال : «**أما تفقه ؟ .. هو ألّا تغضب**» .

الأخلاق أساس التغيير ودعامة الاصلاح :

إن الأخلاق هي أساس التغيير ، ودعامة الاصلاح ، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم ، في قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**إن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾[٢١] .

فلا عجب إذا رأينا الاسلام يعني أوّل ما يعني بتربية النفوس ، لتقف الأخلاق جنبا إلى جنب مع الدساتير ، في حماية المبادىء ، والمثل ، والقيم ، والمحافظة عليها ، وأيّ محاولة للاصلاح تسير في غير هذا الطريق فهي فاشلة وغير مجدية ، ولن تؤدّي في النهاية إلى نتيجة .

والمبادىء والمثل والقيم لا تؤتي ثمارها ، ولا يكون لها أثر فعّال في النفوس حتّى تتمثّل في سلوك خلقيّ رفيع ، يشاهده الناس ويلاحظونه في شخص من يدعو إلى هذه المبادىء والمثل والقيم ، والذي يقتدون به ، ويأتسون بأفعاله ، ويترسّمون خطاه ، لأنّ التطبيق العلميّ أعمق أثرا في الدعوة إلى المبادىء والمثل والقيم وغرسها في النفوس ، من مجرّد النصح والارشاد بالكلمات ، فإذا حدث تناقض عند الداعية بين ما يقول وبين مايفعل ، وكانت أعماله على عكس نصائحه وارشاداته ، فقد ثقة الناس فيه ، وفيما يدعو إليه ، وبالتالي يفقد ما يدعو إليه

---

(٢١) الآية (١١) من سورة الرعد .

حيويّته وتأثيره في النفوس ، وحينئذ تصاب المبادىء والمثل والقيم بالجمود والضياع .

وخير من تتمثّل فيه القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، فلقد كانت أعماله تطبيقا لأقواله ، وكان سلوكه صورة حيّة لدعوته ، وذلك بشهادة المسلمين وغير المسلمين على السواء ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، وذلك لأنّها تربية الله عزّ وجلّ ، وتأديبه ، واعداده .

لقد كان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كاملا في أخلاقه ، كاملا في معاملاته ، وبلغ في ذلك أقصى درجات الكمال البشريّ ، الذي لم يصل ولن يصل إليه أيّ مخلوق ، والذي يتمثّل في :

ايمان بالمولى تبارك وتعالى .

وشخصيّة كونيّة فذّة ، واضحة الحدود .

وإنسانيّة رفيعة .

وشجاعة نادرة .

وإرادة في الحقّ صلبة لا تلين ولا تستكين .

وأساليب بليغة لا يعدل جمالها إلّا قوّتها .

ولا يفوق فصاحته ، وحكمته ، وشفقته ، وحنانه ، وعطفه على الانسان والحيوان والنبات وكلّ سائر المخلوقات إلّا سموّ الشعور ، والاحساس الرّبانيّ الفيّاض .

ومثابرة وثبات .

ومرونة ولين .

وخلق عظيم .

وصدق المولى تبارك وتعالى حيث يقول في كتابه الكريم : ﴿**وإنّك لعلى خلق عظيم**﴾[٢٢] .

وكانت مهمّته صلوات الله وسلامه عليه هي تبليغ ما أنزل إليه ، ولقد لخّص مهمّته في قوله : «**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**» ، وفي قوله هذا ما يؤكّد أنّ الرسل عليهم الصلاة والسلام من قبله قد أسهموا في بناء الصرح الأخلاقيّ بأوفى نصيب ، وأنّه صلوات الله وسلامه عليه جاء بعدهم ليتمّم عمليّة البناء الأخلاقيّ التي تولّاها الأنبياء من قبله .

الأخلاق هي الدين بكلّ ما فيه :

إن الدين منهج للأخلاق ، والأخلاق هي الدين بكلّ ما فيه ، وليست خارجة عنه ، أو زائدة عليه في قليل أو كثير ، فمنهج الاسلام في الأخلاق كتاب المولى تبارك وتعالى ، المتمثّل في سلوك رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، يقول الحقّ سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا**﴾[٢٣] .

يروى أنّه صلوات الله وسلامه عليه كان في سفر ، فأمر أصحابه بإعداد شاة ، فقال رجل : «يا رسول الله : عليّ ذبحها» .

---

(٢٢) الآية (٤) من سورة القلم .

(٢٣) الآية (٢١) من سورة الأحزاب .

وقال آخر : «وعليّ سلخها» .

وقال ثالث : «وعليّ طبخها» .

فقال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**وعليّ جمع الحطب**» .

فقالوا : «يا رسول الله : نكفيك العمل» .

فقال عليه الصلاة والسلام : «**علمت أنّكم تكفونني ، ولكنّي أكره أن أتميّز عليكم ، إن الله يكره من عبده أن يراه متميّزا بين أصحابه**» .

وروي أنّه صلوات الله وسلامه عليه لمّا دخل «مكة» ، يوم الفتح ، في السنة الثامنة من الهجرة ، كان أهل «مكّة» من «قريش» يجلسون بالمسجد الحرام ، وأصحاب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ينتظرون ما يأمرهم به تجاه هؤلاء الأعداء الذين أخرجوه من داره ، وأمعنوا في إيذائه ، وحاولوا قتله ، ولكنّه ﷺ لم يأمرهم بشيء ممّا كانوا يتوقّعونه ، من قتل أو أسر ، بل وسعت نظرته المليئة بالحنان والعطف والشفقة كلّ الموجودين ، وقال لهم ولسانه يفيض رقّة : «**ماذا تظنّون أنّي فاعل بكم ؟**» .

قالو : «خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم» .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : «**أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء**» .

فبلغت منهم رحمته بهم ، وعفوه عنهم مبلغا عظيما ، وهو في مركز القوّة ، فآمنوا بعد كفر ، واهتدوا بعد ضلال ، وعزّوا

بالاسلام ، وعزّ بهم .

الفضائل هي ترجمان العقيدة :

إن الفضائل هي ترجمان العقيدة ، وهي التعبير الواضح الحيّ عن قوّة الايمان ، فالايمان الحقّ هو الذي يتبلور في العمل الصالح ، والتطبيق العلميّ ، وإلّا كان ادّعاء لا دليل عليه ، ولا يقام له وزن عند المولى تبارك وتعالى ، فارتكاب المنكرات لا يعتبر اجراما في حقّ الدولة أو المجتمع الذي يعيش فيه الفرد فحسب ، بل وفي حقّ العقيدة والايمان أيضا .

ولقد سار المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في مجال التربية على الخطّ الذي رسمه له الحقّ جلّ شأنه في كتابه الكريم ، ونجد هذا التوجيه الربّانيّ في أوائل سور القرآن الكريم نزولا ، كقوله عزّ وجلّ :

﴿فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم أن كيدي متين﴾[٢٤] .

وقوله جلّ شأنه : **﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، وذرني والمكذّبين أولى النعمة ، ومهلّهم قليلا﴾**[٢٥] .

وقوله سبحانه جلّ وعلا : **﴿يأيها المدّثر . قم فأنذر . وربّك فكبّر . وثيابك فطهّر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربّك فاصبر﴾**[٢٦] .

---

(٢٤) الآيتان (٤٤ ، ٤٥) من سورة القلم .

(٢٥) الآيتان (١٠ ، ١١) من سورة المزّمل .

(٢٦) الآيات (١ /٧) من سورة المدّثر .

ففي هذه الآيات الكريمة نجد المنهج الذي حدّده القرآن الكريم لسير الدعوة ولعلاقة المسلمين بالمشركين المعاندين .

وهذا المنهج يتمثّل في الأمر بتبليغ الرسالة ، والصبر على العقبات والصعاب في سبيل تطبيقها ، والتخلّق بجميل الصفات ، وترك المكذّبين ليتولّى المولى تبارك وتعالى حسابهم وعقابهم .

وظلّ المسلمون يتّبعون هذه الخطّة إلى نهاية العهد المكّيّ ، فكانوا يعفون عن المشركين ، وذلك استجابة لقول الله عزّ وجلّ : ﴿**قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيّام الله ، ليجزي قوما بما كانوا يكسبون**﴾[٢٧] .

وكانوا يتجنّبون سبّ الأصنام ، تنفيذا لقول المولى تبارك وتعالى : ﴿**ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبّوا الله عدوا بغير علم ، كذلك زينّا لكلّ أمّة عملهم**﴾[٢٨] .

وكان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه رغم إيذاء المشركين له ، ومحاربتهم لدعوته يصبر على كيدهم ، ويقابل السيّئة بالحسنة ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، ويطيع فيهم قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**فاصبر إن وعد الله حقّ ، ولا يستخفّنّك الذين لا يوقنون**﴾[٢٩] .

فإذا استعصوا ، واسترسلوا في جاهليّتهم ، أعرض عنهم كاظما غيظه ، آملا في أن يليّن الله عزّ وجلّ قلوبهم للحقّ ،

---

(٢٧) الآية (١٤) من سورة الجاثية .

(٢٨) الآية (١٠٨) من سورة الأنعام .

(٢٩) الآية (٦٠) من سورة الروم .

ويخرجهم ممّا هم فيه من الظلمات ، إلى النور والهدى .

وقد قيل له يوما : «**ألعنهم يا رسول الله ، وادع عليهم يعذّبهم الله في الدنيا بسيّئات أعمالهم**» ، فرفض المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يفعل ذلك ، وقال : «**إنّي لم أبعث لعّانا ، وإنّما بعثت رحمة**» .

وكان يرفع يديه الكريمتين إلى السماء ، ويدعو لهم قائلا : «**اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون**» .

وكان البعض من المسلمين يجد في نفسه تعبا ومشقّة من اتّباع منهج الصبر والتحمّل والعفو عن المشركين ، فقد ورد أن عبد الرحمن بن عوف ــ رضي الله تعالى عنه ــ أتى إلى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بصحبة جماعة من المسلمين بـ «مكّة» ، فقالوا : «يا نبيّ الله ، كنّا في عزّة ونحن مشركون ، فلمّا آمنّا صرنا أذلّة» ، فقال لهم الرسول ﷺ : «**انّي أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم**» .

على هذا المنهج كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يربّي أصحابه طوال العهد المكّي ، فكان يأمرهم بأن يصلّوا بعيدا عن أعين المشركين ، وأن تكون صلاتهم في شعاب «مكّة» .

وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم ــ رضي الله تعالى عنه ــ عند «الصفا» ، فاختارها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مقرّا للدعوة إلى الاسلام ، لبعدها عن «مكّة» ، ولأن المسلمين كانوا في مبدأ أمرهم قلّة يعدّون على الأصابع ، ولا يتجاوز عددهم عدّة عشرات .

ولقد تميّز المسلمون طوال فترة إقامتهم بـ «مكّة» باتّصافهم

بالحلم ، وضبط النفس ، والتسامح الذي لا مثيل له ، على الرغم من أن حوادث التعذيب والايذاء كانت كفيلة بأن تخرجهم عن طورهم ، وتثيرهم إلى أقصى درجة ممكنة

في العهد المكّي وضعت القوانين الكلّية :

لقد وضع الاسلام في العهد المكّي القوانين الكلّية ، التي تقوم عليها حياة الأفراد ، فنظر إلى الحياة الزوجيّة على أنّها حياة مودّة ، ورحمة ، وسكينة بين الزوجين ، يقول المولى تبارك وتعالى : **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها**﴾[٣٠] .

فالسكون إليها معناه : الشعور العميق بالسعادة والطمأنينة ، ومن خلالهما يحسّ الزوجان بالمودّة والرحمة المتبادلة .

وهذه هي نقطة البداية في سبيل تكوين الأسرة السليمة في عمرها الطويل ، وحياتها المديدة .

ولهذا جاءت الشريعة الاسلاميّة مؤكّدة توصيتها للزوج باعتباره الرئيس للأسرة ، والمسئول عن البيت ، ومالك زمام الأمر والنهي فيه أن يراعي جانب العشرة الطيّبة ، وأن يؤسّس علاقاته على الحسنى والمعروف .

وحرص الاسلام على أن تكون العلاقات بين الأفراد في الأسرة حسنة ، وأمر الأبناء بالاحسان إلى الآباء والتلطّف معهم ، والدعاء لهم تقديرا لجهودهم التي قاموا بها ، ووجوب طاعتهم

---

(٣٠) الآية (٢١) من سورة الروم .

(١٨) [illegible] (١٨ ، ٣٨) [illegible]

(١٨) [illegible] (٣١) [illegible]

[illegible]

[illegible] (١٨)

[illegible]

[illegible] (١٨)

[illegible]

على الله ، إنّه لا يحبّ الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ ، أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إنّ ذلك من عزم الأمور﴾[٣٣] .

وهكذا ربّى الاسلام المسلمين على هذه المبادىء ، من : الصبر ، والشورى ، والانتصار للحقّ ، وهم لايزالون في فترة الضعف ، قبل أن تقوى شوكتهم ، ويشتدّ ساعدهم ، وتكون لهم دولة ، لأن هذه الصفات هي من صفات المؤمنين الصالحين للقيادة ، وتلك هي مؤهلّات القيادة ، التي يتأهّل بها كلّ من يستعدّ لأن يتولّى شؤون الحكم والسياسة .

وقد نزلت الآيات التي تتحدّث عن هذه الصفات في «مكّة» ، ومثلها الآيات المذكورة في سورة «النحل» ، والتي تضع الأساس لدستور الأمّة الاسلاميّة كلّها ، في سلوكها ، وفي معاملاتها ، يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : **﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلّكم تذكّرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثا ، تتّخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمّة هي أربى من أمّة ، إنّما يبلوكم الله به ، وليبيّن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾**[٣٤] .

---

(٣٣) الآيات (٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) من سورة الشورى .

(٣٤) الآية (٩١ ، ٩٢) من سورة النحل .

هذه هي صفات المؤمن الحقّ ، صفات المؤمن كما يريده المولى تبارك وتعالى ، كاملا في تصرّفاته ، يتبع بالقول العمل ، ويخشى الله جلّ شأنه حقّ خشيته ، ولا يخاف في الحقّ لومة لائم ، يمتلىء قلبه بالرحمة ، وتفيض نفسه حنانا وعطفا ، ويحبّ لأخيه المسلم ما يحبّ لنفسه ، ويمتاز بالوفاء ، وبعيد كلّ البعد عن الرياء ، مؤدّ للأمانة ، ساع في قضاء حاجات المسلمين ، شاعر بما يشعر به الفقراء والمحتاجون ، مريد بكلّ ما يفعله ويعمله وجه المولى تبارك وتعالى .

الاسلام ثورة انسانيّة شاملة :

إن الاسلام في حقيقته ليس غير ثورة انسانيّة شاملة ، ودعوة عالميّة ، تهدف أوّل ما تهدف إلى تأليف القلوب ، وتوحيد الشعور ، وجعل الدين الحنيف واحدا في جميع الأمم على اختلاف أنواعها .

وهو عقيدة التوحيد ، والايمان بالمولى تبارك وتعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله عليهم الصلاة والسلام ، من غير تفرقة ، وبدون تمييز .

وإن التربية الاسلاميّة التي تقوم في أساسها على الايمان بالمولى تبارك وتعالى ، والايمان بقدرته ، هي طريق التحرّر من كلّ قيود الذلّ والخوف ، وتكوين الضمير الحيّ القويّ ، وتوجّه صاحبها في أعماله وفي أقواله التوجيه الصحيح السليم ، وتمنعه من الاعوجاج والانحراف ، وتدف به في طريق الصراط المستقيم ، وهذه التربية لها من التأثير القويّ والسيطرة

بلا حدود في نفس صاحبها ما لا يستطيعه أيّ قانون وضعيّ آخر ، أو مذهب فلسفيّ .

لقد وحّدت التربية الاسلاميّة بين جميع المؤمنين من جميع الأمم ، وجعلتهم جماعة واحدة ، وجبهة متّحدة في مواجهة قوى الشرّ والالحاد ، وأقامت العقيدة بتسامحها مكان العصبيّة ، وذلك هو الطريق إلى توحيد الانسانيّة .

وقد وضع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أسس تلك التربية معتمدا على ما يقوّم المسلمين من مواهب ، وما رام فيهم من تهيّؤ واستعداد ، فاهتمّ أوّل الأمر اهتماما كلّيا بالأطفال ، فكان يرفق بهم ، ويداعبهم ، ويوصي بهم الآباء والأمّهات ، ويبذل جهده في تعليمهم وتهذيبهم ، لأنّهم فلذات الأكباد ، ورياحين الآباء والأجداد ، وهم عدّة الغدّ ، وأمل المستقبل ، المستقبل المشرق بنور المحبّة وضياء المودّة ، فكيف لا تهتمّ الأمّة بهم ، وكيف لا تعتني بتعليمهم وتثقيفهم ، وتزويدهم بالأخلاق الفاضلة ، ونبيل المزايا ، وشريف العلم .

واهتمّ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بالشبّان والشابّات ، فأحسن عليه الصلاة والسلام توجيههم ، حتّى كوّن منهم رجالا ونساء مؤمنين برسالته ، متفانين في نصرته ، عاملين على نشر دعوته ، واثقين من وعد المولى تبارك وتعالى للمؤمنين الصادقين بالنصر ، شاعرين بمسئوليّة العبء الملقى على عاتقهم .

وقد كان هذا الاعداد متّسما بالهدؤ ، والعمق ، والأناة ، ليتعوّد المؤمنون على الصبر ، وقوّة الاحتمال ، وعدم القلق ،

والبعد عن السأم والملل ، فلمّا قامت الدولة الاسلاميّة كانوا هم رجالها ، وكانوا صورة واضحة نابضة بالحياة ، تتمثّل فيها مبادىء الاسلام ، ومثله السامية ، وقيمه العظيمة ، وتربيته المثلى .

وبقوّة هذه المبادىء ، وعمق تأثيرها في النفوس ، أعدّ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه رجالا ، وربّى أجيالا ، كانوا هم أوّل من حمل الرسالة ، وأدّى الأمانة ، وقاموا بأعبائها في صدق وإخلاص .

إن الأخلاق الاسلاميّة تحقّق كلّ الخير لكلّ فرد ، ولكلّ جماعة ، وفي كلّ بيئة ، وفي كلّ عصر ، وفي كلّ حالة ، وتمتاز بأنّها سمحاء ميسورة ، لا اعنات فيها ، ولا إرهاق ، ولا تكليف بما لا يطاق ، وتتّسم بالثبات ، والدوام ، والاستقرار ، لأن المشرّع الحكيم راعي فيها كفالة الخير الدائم على الدوام ، وهي تستمدّ من الدين قوّة جبّارة نافذة ، تلزم المسلم بها في السرّ والعلن ، وفي السرّاء والضرّاء ، وذلك لأن الرقيب عليها هو المولى تبارك وتعالى ، وهذا الالزام محبوب مطاع ، لأنّه ممّا أمر به الله عزّ وجلّ ، أو نهى عنه .

ثالثا : التكافل المعاشي

التكافل المعاشيّ هو : إلزام المجتمع برعاية الفقراء والمساكين ، والمرضى والمحتاجين ، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : **أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا**

فقد برئت منهم ذمّة الله تبارك وتعالى» .

إن هذا الحديث النبويّ الشريف يدعو إلى تنمية الأخوّة ، ودعم روابط الودّ والألفة ، والحفاظ عليها بين الأفراد والجماعات ، على أساس من التعاون ، وتجعل منهم أسرة واحدة متآخية ، متعاونة على الخير .

والاسلام بما افترض من زكاة ، وما أوجب من صدقة ، لم يفترض في مجتمعه أنّه مجتمع متسوّل ، ينتظر اللّقمة واللّقمتين ، والتمرة والتمرتين ، بل افترض أوّلا وقبل كلّ شيء أنّه مجتمع عامل جاد ومتكافل ، وإلّا فما فرض الزكاة ، والمصطفى صلوات الله وسلامه عليه يقول : **«اليد العليا خير من اليد السفلى»** .

و : **«خير الصدقة ما كان عن ظهر غني»** .

و : **«من يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله»** .

و : **«والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله ، أعطاه أو منعه»** .

و : **«ليس المسكين الذي يطوف على الناس ، تردّه اللّقمة واللّقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدّق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس»** .

فالعفّة بالعمل ، والتعفّف مع العلّة والعجز ميزان الخلق الاسلاميّ في منهجه الماليّ ، يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله** ،

لا يستطيعون ضربا في الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾[٣٥] .

وعن حكيم بن حزم — رضي الله تعالى عنه — قال : سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثمّ سألته فأعطاني ، ثمّ سألته فأعطاني .

ثمّ قال : «**يا حكيم : إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى**» .

فقال حكيم :يا رسول الله : والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا ، حتّى أفارق الدنيا .

فكان أبو بكر الصديق — رضي الله تعالى عنه — يدعو حكيما إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه .

ثمّ إن عمر بن الخطاب — رضي الله تعالى عنه — دعاه لعطيه فأبى أن يقبل منه شيئا ، فقال عمر بن الخطاب : «**انّي أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم ، إنّي أعرض عليه حقّه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه**» .

فلم يزرأ حكيم أحدا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتّى توفّى .

وفي رواية ، قلت : فوالله لا تكون يدي بعدك يد من أيدي العرب .

---

(٣٥) الآية (٢٧٣) من سورة البقرة .

إن في هذا الحديث تنفيرا من أن يكون المؤمن صاحب اليد السفلى ، وفيه حثّ على التعفّف ، وأخذ بالأسباب إلى الاستغناء ، ولو بحمل الحبل على الظهر والاحتطاب .

ولكن ، قد يقع العجز ، وتمنع العلّة عن الكسب ، وقد يموت العائل وله أطفال صغار جياع ، وقد تأتي حوادث الأيّام على ثمرة الكسب والعمل ، بل قد تأتي يمتدّ بالانسان السعي إلى دار غير داره ، وأرض ليس بها أهله وصحبه ، والمال قد نفذ ، وهو يبغي العودة إلى الأهل والصحب ، وما إلى غير ذلك ممّا لا يحصيه العدّ من حوادث الزمن ، وعاديّات الأيّام ، وصروف الدهر .

فهل يترك هؤلاء للأحداث تبطش بهم ، وللحوادث تنكّس رءوسهم ، ولصروف الزمن تهدم بنيانهم ، وكلّ فرد من الأفراد معرّض لذلك ، فلابّد إذن من التكافل بين أفراد المجتمع ، ولابدّ من فرض الزكاة ، ووجوب التصدّق .

إنّنا أمّة شبّه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أمرها في توادّها وتعاطفها وتراحمها بالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى .

وليس هناك شيء أعظم ، ولا أقوى ، ولا أبرّ وأكرم من هذا التماسك والتعاون في طبيعة الجسد الواحد ، فمن المعروف أن الجسد إذا أصيب منه جزء انشغل الجسد كلّه بالجرح المؤلم ، فلا تزال الاشارات تعمل ، والامدادات تتوالى ، والحرّاس يسهرون على الجرح ، يقدّمون إليه ما يصل من عطاء مفيد حتّى يندمل ، ويعود الجسم سليما معافى .

وهذا بالضبط هو حال المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم ، إن مات والد اليتيم فالكلّ له أب ، وإن حلّت بأحدهم فاجعة كانت الفاجعة فاجعتهم جميعا ، تلك هي الأمّة التي يقال عنها إنّها ﴿**خير أمّة أخرجت للناس**﴾(٣٦) .

رابعا : التكافل الدفاعيّ

التكافل الدفاعيّ هو : أن يتعاون كلّ فرد من أفراد المجتمع في الدفاع عن بعضهم البعض ، مهما بعدت بهم الديار ، وأن يقفوا جميعا يدا واحدة ، ضدّ أيّ عدوّ يهدّدهم ويقلق أمنهم ، فتحشد الأمّة كلّ ما تستطيعه من قوّة لقتال أعدائها .

ولقد أمر المولى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بأن يستعدّوا للحرب التى لا مفرّ منها ، لدفع العدوان والشرّ ، ولحفظ الأنفس ، يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم**﴾(٣٧) .

وإعداد المستطاع من القوّة يختلف الأمر الإلهي فيه باختلاف درجات الاستطاعة ، ونوع القوّة ، في كلّ زمان ومكان .

روى عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أنّه بعد أن تلا هذه الآية الكريمة قال : «**ألا إن القوّة الرمي**» ، قالها ثلاثا .

---

(٣٦) الآية (١١٠) من سورة آل عمران .

(٣٧) الآية (٦٠) من سورة الأنفال .

وهذا كما قال بعض المفسّرين من قبيل : «الحج عرفة» ، بمعنى أن كلّا منهما من أعظم اركان في مكانه ، وذلك لأن رمي العدوّ عن بعد بما يقتله أسلم من محاربته على القرب بسيف ، أو رمح ،أو حربة .

وإطلاقِ الرمي في الحديث يشمل كلّ ما يرمي به العدوّ ، من : سهم ، أو رمح ، أو رصاصة بندقيّة ، أو قذيفة مدفع أو طيّارة .

وهناك أحاديث نبويّة شريفة كثيرة تحثّ على الرمي ، منها :

قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : «**من عُلِّمَ الرمي ثمّ تركه فليس منّا**» .

وقول المصطفى ﷺ : «**إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنّة : صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير ، والذي يجهّز به في سبيل الله ، والذي يرمي به في سبيل الله**» .

وينطبق هذا الحكم على الذين يصنعون الذخيرة على اختلاف أنواعها ، سواء أكان سلاحا بريّا ، أو جويّا ، أو بحريّا ، فيشترك في الأجر الصانع ، والمجهّز ، والذي يضرب به ويجّهه إلى الأعداء .

فالواجب على المسلمين بنصّ القرآن الكريم أن يصنعوا ما تحتاج إليه القوّات والجيوش من الآلات ، المدافع بأنواعها ، والبنادق ، والدبابات ، والطائرات ، وما إلى غير ذلك من قوى الحرب ، لئلا يكونوا تحت رحمة من يصنع الذخائر والمعدّات

[illegible]

بـ «الجزيرة العربيّة» ، وتلفت فيه الثمار ، ونفق فيه الكثير من الدّواب ، وقد أظهرت هذه الغزوة الايمان العميق الفيّاض ، الذي تمتلىء به النفوس ، وتسعد فيه .

لقد أنفق عثمان بن عفان ــ رضي الله تعالى عنه ــ كلّ ماله ، وكان يقدّر بأربعة آلاف درهم .

وتبرّع غالبيّة المسلمين كلّ بما يقدر عليه ويستطيعه ، وشاركت النساء الرجال في التبرّع ، وجهّز كلّ محارب نفسه بما لديه من أسلحة ، حتّى تهيّأ الجيش واستعدّ بقوّة الايمان والمال .

وفي العصر الحديث صار الانفاق على تهيئة الجيش واعداده يدخل في ميزانيّة الدولة ، وتفعل ذلك جميع الدول ذات النظام الثابت .

ولقد حذّر القرآن الكريم من التقصير في هذا الانفاق ، وذلك في قول المولى تبارك وتعالى : ﴿**وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾[٣٩] .

خامسا : التكافل الاقتصاديّ

التكافل الاقتصاديّ هو : العمل على حفظ الثروات ، وزيادة الانتاج ، والعمل على تنميته ، والابتعاد عن كلّ ما فيه ضرر .

وقد أمر الاسلام بمنع السفهاء من أيّ تصرّف في أموالهم ،

---

(٣٩) الآية (١٩٥) من سورة البقرة .

وأسند إلى المجتمع حقّ القوامة عليهم ، يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**﴾[٤٠] .

وأوضح الاسلام ما يجب أن تكون عليه العلاقات الاقتصاديّة بين الناس ، وذلك لأن الاسلام لا يقيم هذه العلاقات على أسس نفعيّة ماديّة ، كما تفعل بقيّة النظم الأخرى ، وإنّما يقيمها على أسس إنسانيّة خلقيّة ، يحقّق بفضلها التكافل والتعاون ، والتّحاب والتوادّ ، والتراحم بين الناس ، بعضهم مع بعض ، والتّواصي بالبرّ والخير والاحسان ، واحترام الشخصيّة الانسانيّة التي كرّمها المولى تبارك وتعالى ، فينظر الانسان إلى أخيه الانسان على أنّه غاية في ذاته ، لا وسيلة لجلب المنفعة ، ويحبّ كلّ فرد لغيره ما يحبّ لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه .

ومع أن الاسلام يعالج في النظام الاقتصاديّ أمورا ماديّة ، فإنّه يقيم هذه الأمور الماديّة على أسس إنسانيّة خلقيّة .

ولعلّ هذا هو أسمى وأهمّ ما يمتاز به النظام الاقتصاديّ في الاسلام عمّا عداه من النظم ، التي طبّقت وتطبّق الآن في مختلف الشعوب .

وفي سبيل توطيد هذه الدعامة وترسيخها ، وتحقيق ما ترمى إليه من أغراض ، وضع الاسلام أمثل نظام للتكافل والضمان الاجتماعيّ ، وسنّ أحكاما كثيرة لتحقيق هذا التكافل ، وهذا الضمان ، فأوجب على الأغنياء أن ينفقوا على الفقراء والعاجزين

---

(٤٠) الآية (٥) من سورة النساء .

عن الكسب من أقربائهم ، فحقّق بذلك التكافل في نطاق الأقرباء .

وأوصى القرآن الكريم في أكثر من آية قرآنيّة كريمة ، وأوصت السنّة النبويّة الشريفة في أكثر من حديث بالجار القريب ، والجار البعيد ، حتّى لقد قرن القرآن الكريم وجوب الاحسان إليهما ، والبرّ بهما ، بوجوب عبادة المولى تبارك وتعالى ، وعدم الشّرك به ، ووجوب الاحسان إلى الوالدين ، فحقّق الاسلام بذلك التكافل في نطاق الجيران في المساكن .

وأوجب على أهل كلّ حيّ ، وقرية ، وبلدة ، أن يعيش بعضهم مع بعض في حالة تكافل وتعاضد ، يرقّ غنيّهم بفقيرهم ، ويسدّ شبعانهم حاجة جائعهم ، حتّى لقد ذهب جماعة من العلماء الفقهاء ، وعلى رأسهم ابن حزم الأندلسيّ إلى مسئوليّة البلد الذي يموت أحد أفراده جوعا ، فيدفع أهله الديّة متضامنين إلى أسرته ، وكأنّهم شركاء في موته ، فحقّق الاسلام بذلك التكافل في نطاق الحيّ ، والقرية ، والبلدة .

وأوجب الاسلام على بيت المال ، وهو ما يسمّى الآن باسم «وزارة الخزانة» ، أو «وزارة الماليّة» ، الانفاق على العاجزين ، الشيخ الفاني ، والمرأة ، في حالة إذا لم يكن لواحد من هؤلاء من تجب عليه النفقة من أقربائه .

وأوجب الاسلام في حالة الشدّة والضرورة أن يعود القادر على المحتاج بما يسدّ حاجته ، كما تدّل على ذلك الأحاديث النبويّة الشريفة ، والتي رواها عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أبو سعيد الخدريّ ، وأبو موسى الأشعريّ ، وغيرهما من

الصحابة ـــ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـــ

وفي سبيل توطيد هذه الدعامة كذلك ، وتحقيق ما ترمي إليه من أغراض ، حرّم الاسلام تحريما قاطعا جميع طرائق الكسب غير المشروع ، فحرّم «الربا» بكلّ أشكاله القديمة والحديثة ، لأنّه نوع من أنواع الكسب غير المشروع .

وهذا يعني من الناحية العلميّة جعل الصيرفة ، بما فيها من سكّ للنقود وخزنها ، وخلق النقود الحسابيّة بيد الدولة وحدها ، حيث جعل الاختصاص في مثل هذه الأمور لبيت المال ، ودار الضرب والصيرفة ، التي تخلق النقود الائتمانيّة .

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم محرّما الربا ، ومتوعّدا من يتعامل به بالحرب من المولى سبحانه عزّ وجلّ ، ومن رسوله ﷺ : ﴿**يأيها الذين آمنوا : اتّقوا الله وذروا ما بقي من الربا ، إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله**﴾(٤١) .

ولعنه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في قوله في رواية عن جابر بن عبد الله ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ ، حيث قال جابر : «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء» .

وحرّم الاسلام الاحتكار والاستغلال ، وكلّ منهما آفة من الآفات الخلقيّة والاجتماعيّة الخطيرة ، وشدّد في محاربة استغلال النفوذ ، والحصول على مصالح ماديّة على حساب

---

(٤١) الآيتان (٢٧٨ ، ٢٧٩) من سورة البقرة .

المجتمع ، يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز : ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون**﴾[٤٢] .

وروي أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه استعمل على صدقات «بني سليم» رجلا يدعى «ابن اللّتبيبّة» ، فلماّ جاء يحاسبه قال : «هذا مالكم ، وهذا هديّة أهديت لي» ، فقال رسول الله ﷺ : «**هلّا جلست في بيت أبيك وأمك حتّى تأتيك هديتّك إن كنت صادقا**» .

وكذلك حرّم الاسلام العدوان على أمن المجتمع ، وإشاعة الفوضى والاضطراب ، يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا ، إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾[٤٣] .

وفي سبيل توطيد هذه الدعامة ، وتحقيق ما ترمي إليه من أهداف ، حبّب الاسلام إلى الأغنياء التصدّق على الفقراء والمساكين ، زيادة على الأمور الواجبة عليهم ، وجعل هذا التصدّق من أكبر القربات وأعظمها أجرا ، وجعل اكتناز الأموال ، وعدم انفاقها في سبيل الله عزّ وجلّ من كبائر المعاصي ، وتوعّد المكتنزين بأشدّ عقوبة يوم القيامة .

والآيات القرآنيّة الكريمة التي وردت في ذلك تجلّ عن الحصر ، ولا تكاد تخلو منها سورة من سور القرآن الكريم .

---

(٤٢) الآية (١٨٨) من سورة البقرة .

(٤٣) الآية (٥٦) من سورة الأعراف .

إن التكافل الاقتصاديّ في الاسلام نسيج وحده ، منقطع النظير بين النظّم الاقتصاديّة الأخرى ، فهو لا يدانيه نظام من النظم السائدة في الوقت الحاضر ، في سموّه ، وفي دقّته ، وفي مبلغ تحقيقه الخير لخير الأفراد والجماعات ، لأنّه نظام له مقوّماته ، وله مثاليّته الخاصّة به .

خاتمـــة

هذه هي الخطوط العامّة في ميدان الجانب الاجتماعي من الاسلام ، والتي تعدّ مبادئه في هذه الناحية ، وهي إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أن الاسلام ليس دين عقيدة فقط ، وليست مهمّته تنظيم العلاقة بين الانسان وخالقه سبحانه جلّ شأنه فحسب ، وإنّما هو عقيدة وشريعة ورسالة ، الغرض منه :

توجيه الانسان إلى جميع نواحي الخير في الحياة .

والابتعاد به عن كلّ مناحي الشرّ التي تؤدّي به إلى الهاوية .

إن العقيدة هي الأصل الذي تنبني عليه الشريعة ، والشريعة أثر لتلك العقيدة ، ومن ثمّ فلا وجود للشريعة إلّا بوجود العقيدة ، ولا ازدهار للشريعة إلّا في ظلّ العقيدة ، لأن الشريعة بدون عقيدة تصير ناقصة القوّة المعنويّة ، التي توحي باحترام الشريعة ، ومراعاة قوانينها ، والعمل بموجبها .

والاسلام يحتّم تعانق العقيدة والشريعة ، بحيث يتلازمان فلا تنفصل إحداهما عن الأخرى ، فالعقيدة أصل يدفع إلى الشريعة ، التي تأتي تلبية لانفعال القلب بالعقيدة ، فمن آمن بالعقيدة فقط ، أو أخذ بالشريعة فقط ، لا يكون مسلما ، ولا سالكا في حكم الاسلام سبيل النجاة .

وإن القوانين الوضعيّة مهما كانت صارمة وقويّة ، وبلغت في الشدّة منتهاها ، فإنّها لا تستطيع أن تسيطر على الفرد السيطرة الكاملة ، وتجعله يسير على نهجها ، لأن السلطة التي تقوم على تنفيذ هذه القوانين لا تستطيع أن تراقب كلّ فرد من أفراد

المجتمع ، في كلّ لحظة وكلّ وقت .

ولكن القوانين الالهيّة التي تصير عقيدة متمكّنة في قلوب الأفراد ونفوسهم ، تجعل من الأفراد رقباء على أنفسهم ، وتجعل السلطة التي تنفّذ هذه القوانين صادرة من قلب الانسان ، فهو الذي يحاسب نفسه عند الصواب ، وعند الخطأ .

وعلى ذلك تكون العقيدة ذات أثر بالغ في تقويم الفرد وإصلاحه ، وإرشاده إلى سبل الخير ، وتدفعه دفعا لأن يكون مخلصا للمولى تبارك وتعالى ، ولوطنه الذي يعيش فيه ، وللجماعة التي يحيا بينها ، وينتمي إليها .

والعقيدة تجعل الانسان مخلصا لعبادته ، ومحسنا لعمله ومتقنا له ، فالمولى تبارك وتعالى هو الذي يراقبه .

وبالعقيدة نضمن سلامة الفرد ، وسلامة المجتمع ، وصلاحية كلّ منهما ، لأن كلّ فرد في المجتمع سيبذل قصارى جهده وأقصى ما يستطيع في تأدية واجبة على الوجه الأكمل ، ومتى صلح الفرد صلح المجتمع .

....

وفّقنا المولى تبارك وتعالى إلى كلّ ما يحبّ ويرضى .
وأعاننا على أنفسنا .
وأنار لنا بصائرنا .
وقوّي بالاسلام قلوبنا .
وهدانا إلى سواء السبيل .
إنّه نعم المولى ، ونعم النصير .

المراجـــع

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ الجامع لأحكام القرآن . للقرطبي

٣ ــ فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر

٤ ــ شرح صحيح مسلم للنووي

٥ ــ سيرة الرسول لابن هشام

٦ ــ الروض الأنف للسهيلي

٧ ــ مفاتيح الغيب ، المشهور بـ «التفسير الكبير» لفخر الدين الرازي

٨ ــ المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلاميّة ، سبتمبر سنة ١٩٦٨م

٩ ــ مع القرآن في آدابه ومعاملاته لعبد الحسيب طه

١٠ ــ القرآن حياة وعصمة لعبد الحميد محمد بلبع

١١ ــ الدعوة الاسلاميّة دعوة عالميّة لمحمد الراوي

فهرس الكتاب

الموضوع — رقم الصفحة

١ ــ مقدّمة ٥
٢ ــ الفصل الأول : ١١
الأساس في المبادىء الاجتماعية .
حياة الفرد .
٣ ــ الفصل الثاني ٩٧
حياة الأسرة .
٤ ــ الفصل الثالث : ١١٩
المجتمع العام .
أولًا : التكافل الأدبي .
ثانياً : التكافل الأخلاقي .
ثالثاً : التكافل المعاشي .
رابعاً : التكافل الدفاعي .
خامساً : التكافل الاقتصادي .
٥ ــ خاتمة : ١٦٥
٦ ــ المراجع : ١٦٧

صدر من هذه السلسلة

١ ـ تأملات في سورة الفاتحة — الدكتور حسن باجودة
٢ ـ الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه — الأستاذ أحمد محمد جمال
٣ ـ الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين — الأستاذ نذير حمدان
٤ ـ الاسلام الفاتح — الدكتور حسين مؤنس
٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكري — الدكتور حسان محمد مرزوق
٦ ـ السيرة النبوية في القرآن — الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧ ـ التخطيط للدعوة الاسلامية — الدكتور محمد علي جريشة
٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية — الدكتور أحمد السيد دراج
٩ ـ التوعية الشاملة في الحج — الأستاذ عبد الله بوقس
١٠ـ الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره — الدكتور عباس حسن محمد
١١ـ لمحات نفسية في القرآن الكريم — د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢ـ السنة في مواجهة الأباطيل — الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣ـ مولود على الفطرة — الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤ـ دور المسجد في الاسلام — الأستاذ محمد علي مختار
١٥ـ تاريخ القرآن الكريم — الدكتور محمد سالم محيسن
١٦ـ البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام — الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧ـ حقوق المرأة في الاسلام — الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١] — الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩ـ القراءات أحكامها ومصادرها — الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠ـ المعاملات في الشريعة الاسلامية — الدكتور عبد الستار السعيد
٢١ـ الزكاة فلسفتها وأحكامها — الدكتور علي محمد العماري
٢٢ـ حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم — الدكتور أبو اليزيد العجمي
٢٣ـ الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤ـ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر — الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥ـ الاسلام والحركات الهدامة — معالي عبد الحميد حمودة

العنوان	المؤلف
٢٦— تربية النشء في ظل الاسلام	الدكتور محمد محمود عمارة
٢٧— مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي	الدكتور محمد شوقي الفنجري
٢٨— وحي الله	الدكتور حسن ضياء الدين عتر
٢٩— حقوق الانسان وواجباته في القرآن	حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠— المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	الأستاذ محمد عمر القصار
٣١— القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣٢— الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج	الدكتور السيد رزق الطويل
٣٣— الاعلام في المجتمع الاسلامي	الأستاذ حامد عبد الواحد
٣٤— الالتزام الديني منهج وسط	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
٣٥— التربية النفسية في المنهج الاسلامي	الدكتور حسن الشرقاوي
٣٦— الاسلام والعلاقات الدولية	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٣٧— العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨— معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها	الدكتور محمود محمد بابللي
٣٩— النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	الدكتور علي محمد نصر
٤٠— من التراث الاقتصادي للمسلمين	الدكتور محمد رفعت العوضي
٤١— المفاهيم الاقتصادية في الاسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢— الأقليات المسلمة في أفريقيا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٣— الأقليات المسلمة في أوروبا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٤— الأقليات المسلمة في الأمريكتين	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٥— الطريق إلى النصر	الأستاذ محمد عبد الله فودة
٤٦— الاسلام دعوة حق	الدكتور السيد رزق الطويل
٤٧— الاسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨— دحض مفتريات	د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩— المجاهدون في فطاني	الأستاذ محمد ضياء شهاب
٥٠— معجزة خلق الانسان	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١— مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية	الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
٥٢— ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي	الأستاذ أنور الجندي
٥٣— الشورى سلوك والتزام	الدكتور محمد أحمد البابلي
٥٤— الصبر في ضوء الكتاب والسنة	أسماء عمر فدعق
٥٥— مدخل إلى تحصين الأمة	الدكتور أحمد محمد الخراط

٥٦ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٣] — الأستاذ أحمد محمد جمال
٥٧ـ كيف تكون خطيباً — الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨ـ الزواج بغير المسلمين — الشيخ حسن خالد
٥٩ـ نظرات في قصص القرآن — محمد قطب عبد العال
٦٠ـ اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات — الدكتور السيد رزق الطويل
٦١ـ بين علم آدم والعلم الحديث — الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢ـ المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان — الدكتور محمد الصادق عفيفي
٦٣ـ من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢] — الدكتور رفعت العوضي
٦٤ـ تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد — الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥ـ لماذا وكيف أسلمت [١] — الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦ـ أصلح الأديان عقيدة وشريعة — الأستاذ عبد الغفور عطار
٦٧ـ العدل والتسامح الاسلامي — الأستاذ أحمد المخزنجي
٦٨ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٤] — الأستاذ أحمد محمد جمال
٦٩ـ الحريات والحقوق الاسلامية — محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠ـ الانسان الروح والعقل والنفس — الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١ـ كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية — الدكتور شوقي بشير
٧٢ـ الاسلام وغزو الفضاء — الشيخ محمد سويد
٧٣ـ تأملات قرآنية — الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤ـ الماسونية سرطان الأمم — الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥ـ المرأة بين الجاهلية والاسلام — الأستاذ سعد صادق محمد
٧٦ـ استخلاف آدم عليه السلام — الدكتور علي محمد نصر
٧٧ـ نظرات في قصص القرآن [٢] — محمد قطب عبد العال
٧٨ـ لماذ وكيف أسلمت [٢] — الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩ـ كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا — الأستاذ سراج محمد وزان
٨٠ـ الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ — الشيخ أبو الحسن الندوي
٨١ـ كيف بدأ الخلق — الأستاذ عيسى العرباوي
٨٢ـ خطوات على طريق الدعوة — الأستاذ أحمد محمد جمال
٨٣ـ المرأة المسلمة بين نظرتين — الأستاذ صالح محمد جمال

طبع بمطابع رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة